إسلام الحادي

أسْوارُ القَمر

مجموعة قصصية

إصدارات دائرة الثقافة، حكومة الشارقة 2026 م

الفهـرس

رعْشة 4
نوْبةُ غرق 7
أشْباح 10
أسْوارُ القمر 13
البلادُ البعيدة 15
أنا الآن سأحكي 18
حكايةُ الرّجل الذي ضحك 21
الزّيارة 23
رَبابَة 26
صورٌ مؤجلةٌ لموتٍ محقق 28
عُلا 30
للحبّ أُغنيةٌ وحيدة 32
قُلوبٌ على الجدران 34
صَفيّة 38
جُويرية 41
الشّتاء 43

الإهداء..

إلى روح عبد الفتاح الحادي وعبد الحميد الحادي...

إلى روح جدتي إحسان محمد علي...

إلى شجرة المحبة ....

الجذور .... أبي وأمي

الأغصان ... أخي وأختي

البراعم ... أبنائي (معاذ – سما – حمزة)

الزهرة الجميلة ... زوجتي

رعْـشـة

لمْ يكن الوضع أفضل في هذا اليوم فالأمر أصبح أشدّ خطورة، فما زلت أراقبه من بعيد، حيث إنني لا أجرؤ على الحديث معه ومحاولة إثنائه عما يفعل ولا أستطيع أيضًا أنْ أنأى بنفسي بعيدًا عنه.

كلّنا نريد أنْ نعرف ما السرّ وراء ذلك التحديق المستمر في السماء؟! وتلك الأوراق التي يكتبها في عجالة ويطوّحها لأعلى، على الرغم من أنه لا يعرف القراءة والكتابة، ونراها تأخذ شكل الطيور المحلّقة في السماء فمنها ما يهبط بفعل الجاذبية ويغوص داخل الأرض ومنها ما يستمرّ في التحليق، وهذا المقعد الخشبي الذي يتسع لعدد لا بأس به من الأفراد يحمله ويسير به داخل الأراضي المزروعة والطرق الملتوية والمستقيمة طوال اليوم، يقترب ويبتعد ويدور في دوائر منتظمة لا يكلّ ولا يمل حتى أصابنا الهلع من شحوب وجهه واتساخ ملابسه.

عبر النافذة كنا نتابعه أنا وأبي وأمي وأبنائي الصغار في صمتٍ وذهول، في الصباح أرسلني أبي إليه، خرجت في عجالة وصفعني هواء الشتاء البارد، مرّ إلى جانبي قطار السكة الحديد فاهتزت الأرض من تحتي، مررت داخل الغيط من بين نخلتين عاليتين متشابكتين.

وصلت ورأيته يضرب بالفأس داخل الأرض يخرج من فمه بخارًا متصاعدًا باللون الأحمر في زفيرٍ متقطع، يتشكل في السماء على شكل سحبٍ ورديةٍ بها كلماتٌ بخط صغير الحجم لمْ أستطعْ قراءة كلمةٍ واحدةٍ منها.

تحت شجرة التوت جلس وعبث بعصاه داخل الأرض الطينية كأنه يكتب أو يخطط لشيءٍ ما، يتساقط من جبينه العرق تهتزّ ساقه ويده بشدة، يشخص ببصره بعيدًا، يلوّح بيده في الفراغ ويعود ليمسح ما خطّه بعصاه ثمّ يعيد الرسم مرة أخرى.

مرتْ ساعات النهار وهو على تلك الحالة وقدْ أتيت له بالطعام منذ الصباح ولمْ يمدّ يده ليأكل أو يشير إليّ أنْ أسبقه.

أشار بيده على المقعد الخشبي الكبير الذي يتسع لأربعة أفرادٍ وقال: احملْ هذا فوق رأسك وسرْ به قليلاً ثمّ عدْ، نظرت في دهشة وقلت: المقعد كبير الحجم ويصعب عليّ حمله امتعض وجهه ورفع صوته قليلاً وأعاد الأمر مرةً أخرى.

حاولت حمل المقعد ولكنّني فشلت، أتى إليّ مسرعًا ووضع بعض القطع من القطن والقماش على رأسي حتى يخفف من ضغط المقعد وساعدني في حمله وقال: سرْ به أطول مسافة ممكنة وسأنتظرك هنا، نظرت في دهشةٍ وسرت به بضع خطواتٍ ثم ترنحت وسقطت ثم ألقيته ورحت أعدو في اتجاه البيت.

كان جدي صحيحًا معافى لم تظهرْ عليه أي أعراضٍ للشيخوخة أو الزهايمر حيث إنه يعرف كلّ الأسماء والأماكن بلْ ويجيد وبدقةٍ العملياتَ الحسابية ولا أدري ماذا حدث له.

في اليوم التالي أتى إليه أبي يحدثه بأنْ يعود ويكفّ عما يفعل نظرًا لتدهور حالته الصحية

نظر إليه غاضبًا ثمّ أشار إليّ وقال: حمّلته المقعد الخشبي فارغًا فأنهكه وألقى به من طول ذراعه بل وجرى مثل النساء يختبئ بالبيت.

أطرق برأسه وقال بصوت حاد « كيف سيعتمد عليه في الغد ‘‘

ربّت أبي عليه وقال: لا تتعجلْ فغدًا سيصير رجلًا يعتمد عليه.

ردّ جدي عليه بعصبية: الرحلة طويلةٌ وشاقةٌ جدًا ولا بدّ له من التدريب المستمر حتى يستطيع الوصول؛ فما نحن سوى ثلاثةٍ جمعتْنا رحلةٌ قدْ تطول وقدْ تقصر، ولكن لا بدّ لنا من الاستعداد جيدًا لتقلبات الزمن، ترى ما الفرق الآن بيني وبينكما سوى أنني من زمن مغاير.

كنت أرى شعره يزداد بياضًا وجسده يزداد نحولاً ونظراته تزداد بريقًا.

نظرت إلى السماء رحت أدقق النظر إلى الورق المتطاير، لم اسألْه كيف كتبتها؟ ولا ماذا كتبت فيها؟ كان الخط صغيرًا جدًا لا يكاد يظهر سوى حروفٍ صغيرةٍ متشابكةٍ، وما إنْ لمحني حتى قال: أترى تلك القصاصات الطائرة، كتبت كلّ القصص التي عشتها لحظة بلحظة، وكلّ القصص التي تمنيت أنْ أعيشها وكل الحكايات التي لم تكتملْ، كل الشخصيات التي قابلتها وعرفتها، وكل الشخصيات التي قابلتها ولم أعرفها.

فجأةً توقف عن الكلام وقام من مجلسه ثمّ نادى على أبي بصوتٍ أجش، فهرول أبي ناحيته ظنًا منه أنه يريده في أعمال الأرض؛ ولكنّه أتى بالمقعد الخشبي الذي كنت أحمله فارغًا وأمرني أنا وأبي بالجلوس عليه، ثم حملنا فوق رأسه بمهارة عجيبة وسار بنا في طريق رملي طويل.

كان يسير في ثبات لم تهتز قدماه ولم يتعرقْ جبينه، وكان لا يسمع استجداءات أبي المتكررة في بالاكتفاء بهذا القدر من السير والتعب.

عند الغروب غامت الرؤية شيئًا فشيئًا، وأصبحت الأجواء تميل إلى الصفرة، رأيت في الطرق الموازية، من هم في عمر جدي يحملون أبناءهم وأحفادهم ويسيرون أيضًا في طرق رملية وعرة، ورأيت الأطفال في غاية السعادة يتشبثون بالمقاعد ويلعبون بصناديق من الورق المقوى، وآباؤهم يجلسون أقلّ طمأنينة، يوزعون نظراتهم القلقة في جميع الاتجاهات، وأمام الجميع يسير رجلٌ طويل القامة لدرجة أنّ كلّ منْ يسير خلفه يراه

بوضوح، يحمل مصباحًا متوهجًا ويحمل بعض الصور غير المتشابهة يعرضها واحدةً تلو الأخرى على كلّ منْ يصل إليه، ثم بعد أن يعرضها يرميها بعيدًا في اتجاه آخر فتتلاشى حتى تختفي، ثمّ ينحدر بهم الطريق ليسلّمهم إلى طريق آخر لا نراه.

استجاب جدي أخيرًا وأنزلنا من فوق رأسه ومضى في طريقه منفردًا، تعجبت من بكاء أبي وهو ينادي على جدي حين سار، ووجدتني أنا وابني على نفس المقعد فوق رأس أبي نسير في طريق مشابه، كنت أوزّع نظراتي القلقة، وكان صغيري يلعب بصندوق الورق المقوّى، وحين أنزلنا هذه المرة خفت وجريت ملهوفًا على أبي، فلمْ يسمعْني، وجدته يغمض عينيه متعبًا وهو يلهث ويشير إلى الطريق: أن أكمل السير.

كنت أعدو مثل القطار، لم أستطع التوقف حتى ألتقط أنفاسي شعرت بجسدي يتحرك بطريقة آلية، تذكرت جدي حين حمّلني المقعد وهو فارغاً، وضعت يدي على رأسي فلم أجدْ شعري، تساقطتْ حبات العرق من جبيني، أمسكت بنفس العصا وعبثت بنفس الأرض، وكتبت بعض القصاصات التي تطايرتْ؛ ثمّ أمعنت النظر فوجدت ساقي ويدي ترتعشان قليلاً.

نـوْبـةُ غـرق

مستسلمٌ أنا لهذا التيار يأخذني معه أينما ذهب، فما أنا سوى كائن خشبيّ يطفو على سطح الماء، يراقب بعينين ناعستين كلّ منْ جاء ليستحمّ.. لا أدري منذ متى وأنا هنا.. حدّثني أبي - كما حدّثه - جدي أننا جميعًا بقايا لمركبٍ غرقتْ هنا في نفس المكان منذ زمنٍ بعيد.

تمرّ الأيام ويتآكل جسدي ليصبح لونه بنيًا وتبدأ الشقوق تظهر على سطحه، تداعبني الأمواج يمينًا ويسارًا، يسعدني صوت المطر حين ينهمر بشدةٍ، وأسمع صوت طقطقته على ظهري وتساقط أوراق الأشجار وانتشارها على صفحات الماء، وتزعجني جدًا تلك الدوامة المسعورة التي تريد أنْ أهبط معها إلى القاع.

في الأعلى -على الكوبري - أسمع بوضوحٍ صوت بنت بائعة الترمس وهي تتمايل مع الأغنية الهابطة، والأب يستند بظهره على حافة السور يسعل بشدةٍ ويخرج من أنفه البخار في عز البرد، أمّا أم بائعة الترمس فتضع رأسها بين فتحات السور الحديدية، تغطّ في سباتٍ عميقٍ وتصدر أصواتًا أشبه بسمفونيةٍ غير منتظمة تثير الذعر، تزين بنت بائعة الترمس العربة ببعض الزهور الحمراء تعيد ترتيبهم أمامها، وبين الحين والآخر تسكب الماء من القلة على الترمس وتستمر في التقليب من أسفل إلى أعلى، ترتعد من الكلب الأسود الذي لم يتوقفْ عن النباح عليها، أشاحتْ له بيدها: «امش» أكثر من مرة ولم يستجبْ، وحين استيقظ الأب سبّها بقاموس السباب الموجود على أرض البسيطة وأمسك بحجرٍ صغيرٍ ألقاه على الكلب فمضى مسرعًا.

البلدة بأكملها حزنت جدًا على بائع الفول النابت الذي التهمته النار، فقفز مسرعًا إلى الماء وهبط بجواري، ضرب بذراعيه الماء كثيرًا وحاول أنْ ينجو، هو نجا من أنْ يحترق ولكنه مع الأسف مات غريقًا، كنت أتمنى أنْ يمسك بي وأنْ أحمله إلى الشاطئ ولكنْ كما كان يقول أبي: «أعمار».

بنت بائعة الترمس تسير مع البنات ولكنْ شتان بينها وبينهن؛ أنفها دقيق وشعرها جدائله ذهبية، الجسم لون الحليب والعيون سوداء بلون الليل، الرجال يمشون خلفها كالمجانين يديرون أعناقهم أينما ذهبتْ.

تعرف جيدًا أنّها محبوبةٌ، فحين تأتي في الصباح تتمطى بكسلٍ مثل القطة التي نالتْ قسطًا كبيرًا من الراحة، تبتسم ابتسامةً ماكرةً حين يقول أحدهم: صباح الخير ... الآن فقط أشرقتْ

الشمس، تحاول تجاوز الأمر برسم الضيق على وجهها ثمّ تزفر بشدةٍ وتقول: "يا سم".

ثم كانتْ تلك الليلة التي لم تنته، سمعتْ صوت ارتطامٍ قوي بالماء، كان إلى جانبي جسدٌ آدمي.

ساد الصمت بيننا - صمتٌ - يستطيع أنْ يحكي حكايتها بوضوحٍ، أنفاسها ترددتْ لسنواتٍ ثم اليوم تلاشتْ واختفتْ، كانتْ نائمةً فمها مفتوحٌ ولعينيها المسبلتين ألف سؤالٍ وسؤال، الوجه أزرق اللون، والبطن منتفخٌ، يطفو الجسد ويستسلم للأمواج مثلي ينتظر منْ ينتشله، وبعد أيامٍ سمعت دويّ صوت سيارة الشرطة وخرج منها الضابط يأمر بانتشال الجثة.

وقف أبوها يدقّ بكلّ قوةٍ سياج الكوبري، تظهر من عينيه دمعةٌ حارةٌ تنساب ببطءٍ حتى وصلتْ لفمه، لعقها وشعر بطعم الملح، قال له الضابط: أهذه ابنتك؟

لطم على وجهه حتى كسرتْ نظارته ودخلتْ بقايا الزجاج المتناثر داخل عينيه.

قال الضابط: هذا الشاب الذي يرتدي قميصًا مفتوحًا من أعلى تتأرجح به سلسلةٌ ذهبيةٌ اعترف بجريمته وقال: تشاجرتْ معي في الشارع وسمعها كلّ المارة، فما كان مني سوى أنْ أقتلها.

صراخ أم الفتاة شقّ سكون الليل، جلستْ على جرف الترعة وأخذتْ تهيل على رأسها التراب وقالتْ: البنت عبيطة يا حضرة الضابط، لا تدرك ما تفعله وهذا الشاب ضحك عليها وفعل فعلته وقتلها.

ساعتها ارتجف جسدي وازداد توترًا وازدادتْ حركتي لأعلى وأسفل، كنت مستكينًا أنتظر مرور تلك الليلة الكئيبة، البيوت متلاصقةٌ وخفيضةٌ والنوافذ عيونٌ بلهاءٌ دامعة، أجسادٌ نائمةٌ منتفخة البطن تعلو وتهبط ولا نسمع تنفسها.

****

في ذلك اليوم كانتْ هنا بنت بائعة الترمس، لم تضع الأخضر والأحمر ولم تتمايلْ مع الأغنية الهابطة، والأب لم يستندْ بظهره على سور الترعة ولمْ يسعلْ بشدةٍ ولمْ يخرجْ من أنفه البخار في عز البرد، لمْ يكنْ هناك مجموعةٌ من الورود الحمراء تزين العربة، ولمْ يكنْ إلّا لوحة «الصبر مفتاح الفرج» التي كانتْ تعكس بعض الضوء الخافت الصادر من عمود الإنارة.

في عز الليل مرتْ سيارةٌ فارهةٌ فصدمتْ العربة، وبنت بائعة الترمس غاصتْ وشهقتْ وامتلأتْ رئتاها بماء الحشرجة، كان حرف الغين يتطاير مع البصاق، وغرغرة الماء تخرج في استجداءٍ واضح المعالم، في تلك اللحظة كانتْ مخالب ماء الترعة تنغرس في كلّ عرقٍ حتى يخرج منها آخر حرف غين ممطوطًا متطايرًا من فمها المرتعش.

حين طلع النهار الأبيض كان كلّ شيءٍ داخل الماء قدْ غاص في الأسفل، إلاّ لوحة «الصبر مفتاح الفرج» كانتْ تهتز وبشدة وتتأرجح بجانبي، وكانتْ كلمة «الصبر» تظهر بوضوحٍ ولا تزال تهتز.

خفت بعدها بشدةٍ أنْ أهبط مثل كلّ شيءٍ إلى القاع، ولكنْ حدثتْ فترةٌ من الجفاف وذهب ماء الترعة، لا أعرف إلى أين فلمْ أهبطْ إلى القاع ولكن القاع هو الذي صعد إليّ في الأعلى..

أشْـبــاح

كلّ ليلةٍ يصدر صوتًا أشبه بسعالٍ مكتوم يعلن به قدومه، تهتزّ الصورة، يطلّ برأسٍ دون ملامح، يظهر وجهه مبتسمًا ثم يبدأ في الظهور شيئًا فشيئًا حتى يخرج بكامل هيئته، كنت أعلم بميعاد خروجه ولكنّني كنت أتظاهر بالنوم حتى يأتي ويربت على كتفي كي أستيقظ، نتحدث ونثرثر كثيرًا ثمّ حين يخترق شعاع الضوء الأبيض النافذة يدخل مرةً أخرى إلى الصورة.

غاب فترةً ولمْ يأت ولا أعرف السبب إلى الآن، يدقّ الهاتف ولا أدري أيضًا ما علاقة دقّ الهاتف بدخول عمتي إلى الحجرة وقولها: أجيبي الهاتف يا ابنتي، هو مريضٌ «اعملي معروف».

أضغط زرّ الإغلاق بعصبيةٍ وأنتظر قدومه من حيث يأتي كلّ ليلة ...

تركتْني عمتي وجاء الليل، أسمع طرقاتٍ متوترة على النافذة الزجاجية أعتقد أنني لازلت داخل تفاصيل ذلك الحلم المرعب، يزداد الطرق ويتحول شيئًا فشيئًا إلى طرقاتٍ عنيفةٍ متتاليةٍ، أنظر خلسةً من تحت الغطاء لأجد وجهه خارج النافذة يلوّح لي بيده وأشعر أنّ شيئًا ما يعرّي ظهري، وأشعر بلسعات الهواء البارد تخترقني، أقوم فزعةً أسير وأتخبط في الظلام، أسمع وأرى دموع أمي على وسادتها المختلطة ببعض الكحل ... يلوح مرةً أخرى ويمضي ثمّ تتكرر الرؤية وتزداد سرعة النقرات وشدتها فأعدو إلى الخارج لأنام في حضن أمي.

في الصباح سمعت وأنا أسير ملتصقةً بأمي تلك العجوز التي تجلس على المصطبة بجوار بيتنا، تقول لصاحبتها في الركن المقابل بعدما شيعتْنا بنظراتها الحادة «الراجل أمه قعيدة ولمْ تتحمل العيش معه، وفي آخر شجارٍ بينهما قال لها: خذي ما تشائين حتى المسمار داخل الحائط و....»، صمتتْ حين نظرت إليها وأشارت إلى صاحبتها إشاراتٍ فهمتْ منها أنها ستكمل لها في الغد.

ليلتها كنت أتأمل تلك الصور، واحدة للتقديم بالمدرسة وأخرى ليس لها علاقة بالمدرسة، صورةٌ رأتها أمي وفرحتْ وغنتْ «حبيبة أمها» وأخرى خبأتها طويلاً هي وسلسلة يتدلى منها أول حروف اسمي، الصور زاهية الألوان وفيها كنت تحتضنني بقوة، لمْ أشعرْ بالخوف ولكنني كنت أنظر بترقب، أما أنت فنظراتك كانتْ مشبعةً بالأسى والحزن، فجأةً

خرجتْ من إطارها وحاولتْ الحديث معي هيا لنلعب لعبة مسلية.

دعْني أسألك وأرجوك لا تقلْ عني: ثرثارة.

لماذا تبكي أمي ليلاً وتضع خدها على سور الشرفة؟ حينها أرى عمود الإنارة أمام منزلنا يتأرجح والضوء يخفت شيئًا فشيئًا حتى يتلاشى وتظلم الدنيا، أمضي نحوها أقبل يدها ورأسها فيزداد نشيجها المتقطع وأجذبها ناحيتي برفقٍ وأحاول أنْ أربّت على رأسها المتعب حتى تنام.

أتعلم، بالأمس لمْ أجدْ الأطفال لألعب معهم، أخذت عروستي بشعرها المنكوش وذراعها الخارج من ملابسها الممزقة، نظرت من فتحة سور النادي المقابل لبيت جدي، وجدت الصبية يلعبون الكرة وأنا بنتٌ لا أستطيع أنْ ألعب معهم، وجدت فتحاتٍ داخل السور تسمح لي بتسلقه، تسلقت السور ومشيت عليه وظللت هكذا «رايحة جاية»، الصبيان داخل النادي قالوا لي انزلي يا «عبيطة»، لمْ أستمعْ إليهم فكرروا النداء مراتٍ كثيرة، ولكنني كنت مستمتعةً جدًا بما أفعل وأبقيت قدمي على حافة السور دون أنْ تنزلق، وجدتني أدور في دوائر سوداء رسمت في داخلها بعض الوجوه، ورأيت وجه السيدة التي تجلس أمام البيت ووجه صاحبتها، أغمضت عيني و حاولت مسح الوجوه التي لا أريد أنْ تظهر فلم أستطع، أمي لا تزال تردد «اتركي الأنوار موقدةً، أغسلي الأطباق، كفاك شرباً للقهوة ، القراءة ستذهب عقلك ..”

وفجأةً وأنا على تلك الحالة ركل أحدهم الكرة بعنفٍ ناحيتي فوقعت، كان عامل المسجد يجلس تحت السور، جرى بسرعةٍ ناحيتي وحملني ونادى على أمي كي تأخذني، كانتْ رائحته كريهةً ولكنها كانتْ تشبه رائحتك وأنت تجلسني على رجلك وتنفث دخان سجائرك

نظرتْ إليّ نظرةً حادةً وقالتْ: لا تفعلي ذلك مرة أخرى.

أتذكر حين أتيت تلك الليلة كان المصباح الأصفر يرتعش ويتحرك بفعل الهواء القادم من النافذة، وهذا يخيفني جدًا؛ أتراه عصفورًا تركه أقرانه وراح يزقزق منفردًا، ففتكت به بومة تطلّ برأسها الذي يتحرك في جميع الاتجاهات، أسألك لماذا؟ ترد لأنه عصفورٌ والبومة تأكل العصفور، أردّ بعصبية: هلْ ذنبه أنه عصفورٌ؟ تردّ بهدوءٍ وثقةٍ: وهلْ ذنبها أنّها تظلّ جائعةً؟ وهلْ ذنب العصفور أنه خلق ضعيفاً لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟ ألمْ تدرسي ما يسمونه التوازن البيئي؟ صوتي يزداد حدةً: نعم درسته ولكنّه قانونٌ غير عادلٍ، وجدتني أشخص ببصري ناحية الشجرة مرةً أخرى وجدت العصفور وقدْ كبر جناحاه واستطالتْ أظافره وأصبح له أنيابٌ ينهش بها كلّ من يحاول الاقتراب منه.

- أرني أصابعك ذات الأظافر المشوهة.

- ولم؟

- لأنني نسيت شكلهم حينما كنت أعدّ عليهم في مسائل الجمع والطرح.

يستمر الحوار وتقاطعنا دقات الهاتف، أنظر في الظلام لأجد رقم هاتفك الخلوي، أضغط على زر الإغلاق بقوة أقول بحدة: ألمْ نتفقْ على ألا ننسى، دعْنا نكمل ما بدأناه في لعبتنا المسلية..

قلت له سأحكي لك قصة الصورة لأنك سألتني أكثر من مرة.

" يومها دخلتْ عمتي تحضنني بقوة (لأنها بغض النظر عن أي شي آخر كانتْ صديقة أمي). تلبسني فستاني الأحمر وتضع في شعري المنسدل وردة حمراء. هيا معي لنأخذ صورةً. ترفض أمي بشدة خروجي من البيت، تستجديها لأخرج معها، توافق على مضض، أمسكت بيد عمتي وضغطت عليها بقوة وقفنا أمام أستوديو التصوير برهة، رأيتك قادمًا نحوي تهرول، خبأت وجهي في ملابس عمتي (لا أعرف لماذا شعرت بالخوف منك ؟!) احتضنتني وبكيت طويلاً، كانتْ يدك خشنةً ولكني لمْ أرها قبل ذلك تعبث بمفتاح الباب الخارجي، ولمْ أشعرْ بها تربت على كتفي، نظرتْ إليّ عمتي نظرة رضا، دمعتْ عينا عمتي وسحبتني من يدي وأنا في ذهولٍ تام لننسحب من المشهد ونعود إلى البيت، جريت خلفي ملهوفًا وأعطيتني قطعتين من «غزل البنات» وقلت بصوتٍ أشبه بالبكاء: «لعلّ غزل البنات يشبه لقاءنا، فكلاهما هشٌ وتنفد حلاوته سريعًا ".

لا يزال الهاتف يدقّ بإصرارٍ يريد أنْ أجيبه، تدخل عمتي أيضًا تستجديني كما في سابق عهدها، وهو لا يزال يختفي ويظهر؛ مرة على الشجرة بجانب العصفور والبومة ومرة على السور الذي تسلقته، ومرة أخرى على المصطبة بجوار السيدة العجوز، ومراتٍ كثيرة يتشكل وجهه مع الوجوه والدوائر التي رأيتها وارتسمتْ أمامي.

كلّ هذا لمْ يثرْ دهشتي، ولكنّني تعجبت لأنّ هذه المرة بالذات لمْ يدخلْ مرة أخرى إلى الصورة بعد طلوع النهار، ما جعلني أستمتع بحديثه وهو لمْ يكنْ يريد أنْ ينسى أنه ليس بجانبي. تعجبت أكثر لأنّ الصورة حين تأملتها آخر مرة لم أر فيها سوى أشباحٍ كأنها حرقتْ في معمل التحميض، عندها أجابتْ عمتي على الهاتف وفجأة ألقتْه من يدها وصرختْ: «أبوكي مااااات».

أسْوارُ القمر

(1)

قلت لنفسي: تدعي دائمًا أنك صاحب الحلول السحرية وأنت لا تمتلك سوى نظرة عاشقٍ ضعيفٍ ذليلٍ لا يقوى حتى على إطالة النظر، الحب للشجعان أمّا الجبناء فتزوجهمْ أمهاتهم، هكذا قال نزار قباني، لمْ أحلمْ يومًا حلمًا ممكنًا حتى أحلم اليوم حلمًا مستحيلاً، أنْ تطيل النظر إلى الشمس فإنك ستصاب بالعمى.

كنت أجلس أنا وصديقي نقتسم رغيف خبز، أنزلتْه والدته توًا من الفرن ناولني إياه وهو يرفع نظره ناحيتي في برودٍ واستسلامٍ قائلًا: ابنة الأمير دفعة واحدة قلت: نعمْ ويومًا ما ستعرف.

الحب يبدأ من أسفل صورتها ويجوب العالم حتى يجثو على ركبتيه أمامها وقلت له: هيا بنا لنراها من أعلى، لملم طرف جلبابه المهترئ وصعدْنا.

كانتْ تطلّ من خلف نافذتها، ورغم أنّ نظري ضعيفٌ نسبيًا إلا أنني كنت أراها ترتدي ثوبًا من بلور، عيناها تذرف دمعًا، وأحيانًا مداعبات وابتسامات على حسب الوقت الذي أتطلع إليها فيه، الدموع تنزل برفقٍ على خديها وكأنها تسيل على سطح أملس شديد الحساسية، عيناها الكبيرتان ينفذ بريقهما بشدةٍ من خلف الزجاج في شيءٍ أشبه بالفنار، كلّ شباب القرية يقفون أمام قصرها المنيف ينتظرون أنْ تخرج ولو مرة واحدة، الكلّ يعلم جيدًا أنّ القرية بأكملها تتمنى منها نظرة.

(2)

في الصباح كنا جميعًا وقوفًا أمام قصرها، يأتي صديقي يتسلق أسوار القصر غير هيّابٍ.. أنظر إليه وأجلد ذاتي بالضعف و المهانة كما عودتها سابقًا، نظرت فوجدت الحرّاس قدْ أمسكوا به و أوسعوه ضربًا، ومن باب القصر الخلفي ألقوه في وسط الطريق و ظلّ يتأوه حتى الصباح، في اليوم التالي كانتْ تقف في شرفتها، هبط ضوء القمر على وجهها فذاب، وتماهى وبدا و كأنه شعاعٌ من الفضة له نعومة الحرير يخترق فتحات السور ليبهر عيون الواقفين بانتظارها، نظرت في حنو لمنْ تسلق السور بالأمس حيث إنه كان من الواقفين، وبدتْ ملامحه متعبة، همّت أنْ تهبط لتعنف الحراس على ما فعلوه به و لكنْ ربما منعها الحياء، أغمضتْ عينيها حتى لا ترى دمه وهو لا يزال يروي أشجار الحديقة، خصّتني بنظرة استهانة واضحة المعالم ربما لأنني أقف أمام القصر منذ وقتٍ طويلٍ و لمْ أفعلْ شيئًا،

جاء والدها الأمير محملاً بغضبٍ عارمٍ، وعنّفها لأنها لا تزال واقفةً أمام الشرفة، جذبها من يدها وهبطا الدرج، تطاير شعرها فأرسل شعاع الذهب، استقرتْ خلفه على جواده الأشقر.

همستْ في أذنه همسًا أشبه بالغناء ثم فردتْ ذراعيها لستائر الليل لتحتضنها.

(3)

في المساء حدثت نفسي قائلاً: هي الشرفة والبلور وهي القمر عند كمال استدارته وهي الصورة وانعكاسها، فرؤيتها من بعيد تجعلني سعيدًا فكيف بقربها، ثم ماذا سيحدث لو تسلقت الأسوار وأعطيتها تلك الوردة لتغرسها في جديلتها الذهبية؟! فطوال عمري أسير على جانبي الطريق، ماذا سيضيرني إذا سرت في منتصف الطريق ولو لمرةٍ واحدة!؟ حدثّني صاحبي وقال: لا تتسرعْ، إنّ النتيجة محسوبةٌ، ضربٌ وركلٌ وإهاناتٌ لا تنتهي، اعتبرته يهذي كالمجنون فما من شيءٍ سيحول بيني وبين ما أريد. كان كلّ شيء حولي ساكنًا إلاّ قلبي الذي كان يخفق بشدة، ودّ لو أنه ينطق ويقول لي: تمهّلْ فأنا أدق بكل ما أوتيت من لهفةٍ، وأحاول القيام الآن من ركامي لأستلهم نورًا منها كي يطفئ ناري.

تسلقت الأسوار وهبطت في أرض الحديقة، نبحتْ عليّ الكلاب ومزقتْ ملابسي، ثمّ أتى على إثرها الحراس أمسكوني و أوسعوني ضربًا وركلاً... الوردة الحمراء ورسالتي التي أحكمت ربطهما في أسفل الوردة، وتعدّ مقدمةً لتفاصيل حكاية لا تنتهي، تطايرتا أشلاءً وذهب عبير الوردة الفوّاح، كنت سعيدًا، و أحسست بالشغف يملأ قلبي، لأنني رأيتها تنظر إلي بحنوٍ واضح المعالم، هبطت الدرج مسرعةً واحتضنتني بشدةٍ حتى إنني سمعت صوت طقطقةٍ لعظامها وعظامي حيث تناثر منهما ما يشبه البلور وملأ أرضية الحديقة و انتشر عطرها الفوّاح فما زال يملأ أرجاء القرية حتى الآن ...

البلادُ البعيدة

في الصباح..

حجبت الشبورة الرؤية عنه وهو يقود، ولمْ تستطعْ أنْ تحجب عني رؤية تلك الأسوار العالية للقصور والأبنية الفارهة وتلك الميادين بأسمائها الغريبة وواجهات المحلات المكتوب عليها باللغة العربية والإنجليزية، كنت ممسكًا بحقيبتي أضمها إلى صدري جيدًا وأتأمل ملابسي الجديدة بين الحين والآخر، كانتْ دقات المطر تدق على السيارة بعنفٍ وكانتْ دقات قلبي تتسارع لاختزال الزمن والعودة سالمًا لأحضان أمي، المطر هو المطر والسماء هي السماء والشمس هي الشمس ولكنّ الشيء الوحيد المختلف هو شعوري بهمّ في تلك اللحظة.

كان يدق على المقود بعصبية لصعوبة الرؤية، يهدئ من السرعة ويرفع جسده قليلاً لينظر في المرآة الأمامية ثم يطلّ برأسه على اليمين ويأمرني بعنفٍ أنْ أتابع الطريق والقادم من الناحية اليسرى، عبث بمفتاح المذياع فانفجر صوت الشيخ يمزق القلق، عدل من جلسته وأخذ يدندن مع صوت الشيخ إلى أنْ ظهر شبح المبنى يتمددّ أمام عيني يسدّ الأفق.

ازداد المطر لحدٍ أصبحتْ فيه عجلات السيارة تتحرك بصعوبة وهي تشق الماء المتراكم، نزل من السيارة ليمسح بقطعة من القماش الزجاج الخلفي حتى يستطيع رؤية شعوري بالوحشة والخوف، أصبح مضروبًا في نفسه مئات المرات حين استوقفنا شرطي المرور يأمره بالأوراق الخاصة بالسيارة ويحرر مخالفةً بكسر إشارة المرور، حدثّه بلهجته و أقسم له بأغلظ الأيمان أنه لم ير الإشارة ولكنّ الأمر قدْ قضي، أمعن الشرطي النظر داخل السيارة فوجدني أمسح ما تسرّب مني من دموع فأمره بأنْ يوصلني وأنْ يعود لاستكمال بقية الإجراءات، ربت على كتفي واستجداني أنْ أكفّ عن البكاء وأنّ الأحوال ستكون على ما يرام ...

كانتْ عيناي قد تعودتْ على الشبورة، ولمْ يختلفْ شعوري كثيرًا حين وجدت أقراني يركبون سيارة كبيرة تحملهم وهم في غاية السعادة، سألتهم: إلى أين؟ أشاحوا بوجوههم عني وحينما هممت بالركوب مثلهم منعني الأستاذ وأكدّ أنّ هذه الرحلة لزيارة بعض المصانع وهي لأصحاب الأرض فقط ، أسندت ظهري على أحد الجدران ووجدت زميلاً لي ينتظر لأنه منع من الركوب هو الآخر، وضعت همي على همه وتعانقتْ دقات قلوبنا ووجدْنا

أنفسنا نتدحرج في الفناء ولمْ نضعْ في اعتبارنا الطين والندى المتساقط واتساخ ملابسنا البيضاء، تلاطمنا مع الجدران وتقلبت الصور والمشاهد في مخيلتنا، تبدلت الأرض وعدت إلى أرضي، وتساقطتْ قبلات جدي من السماء وعانقت البيت الكبير المسقوف بالعروق الخشبية، أدرت طلمبة المياه وشعرت بنشوةٍ عارمةٍ وأنا أتراشق بالماء مع أقراني، ثمّ نظرت إلى منْ بجواري فرأيته يشخص ببصره ناحية السماء، ولمّا أفقْنا وجدْنا أنفسنا لا نزال نضع حقائبنا على الأرض و نجلس عليها حتى جاء أحدهم ونهرنا ثمّ أمرنا أنْ ننضم إلى فصل آخر فلملمنا أذيالنا و أطرقْنا وسرْنا إلى حيث أشار ...

عند الظهيرة..

خرجت مع الجموع وكلّ واحدٍ منهم انطلق ناحية السيارة التي تنتظره، ووقفت أنتظر وطال انتظاري حتى غلقت الأبواب، وجلست وحيدًا بجوار السور، غامت الرؤية في عيني وكلما مر الوقت ازددت التصاقًا بالسور، وبعد معركةٍ طاحنةٍ ومقاومة مستميتةٍ مع الدموع وتكراري لكلمة أمي « الرجال لا يبكون « إلا أنني خسرتها في النهاية وبدأت في النحيب المتقطع، خرج على إثرها الحارس ليهدئ من روعي وسألني إنْ كنت أحمل أي رقم هاتفٍ أو أي عنوانٍ فأجبته بالنفي ضحك بثقةٍ وقال: لا تقلقْ لعلّ المانع خير.

أصبحت ألتقط أنفاسي بصعوبة وشعرت أنّ عينيّ لا تريدان رؤية المزيد فأغمضتهما ورأيتها وهي تحملني وتطوف بي أرجاء الحجرة حتى أنام، وتحاول إقناعي بلبس الجلباب الأبيض بعد عملية الطهارة وأنها سوف تعدّ لي ما أشتهيه من الطعام، ثم حلمت بأنني سأعود لأمسك العصا من جدتي وأمنع الدجاج من أكل العيش المرصوص في الشمس حتى يخمر، وأنتظرها حين تكافئني بطبق عصيدةٍ أو رغيفٍ بالسمن والسكر وركوب حمار العم عارف لأتنزه به قليلاً إلى أنْ يكمل زيارته وحديثه مع جدتي، ويسألني بوجهٍ مبتسمٍ هلْ أعددت الركوبة للعودة؟!

كان الغسق يقترب شيئًا فشيئًا، وعلى مدى الرؤية كانتْ تظهر تلك الخطوط التي لونتْ بالحمرة الخفيفة، ولا زلت أقف والحارس يقف بجواري وقد أعيتْه الحيل في معرفة طريقي حتى بدا لنا شبح السيارة، عدوت ناحيته وبكيت على قميصه حتى ابتلّ، احتضنني بقوة ومسح بيده على شعري وقال بلهجة شبه باكية: لم يتركْني الشرطي منذ الصباح.

في المساء..

دخلت معه وهو يتمتم بالحمد وتحدّث مع أمي وقال لها: إنهم لم يتركوه إلا بدفع غرامةٍ كبيرة، وأنه استجداهم في التحدث في الهاتف لأنه يعلم أنني أنتظره وأنّ أمي مثلي لا

تعرف الطريق. جلس بجواري وقال سنذهب معًا مشوارًا آخر فرفضت ولكنه أصرّ حتى يخرجني من الحالة التي كنت عليها ، كانت الميادين ليلاً تأخذ شكلاً آخر، كانتْ تضيء وتدور وتصدر أصواتًا وأناشيد جميلة، دخلنا القصر الكبير ورنوت إلى هذا العالم العجيب من أشجارٍ ملتفة و إضاءة مبهرةٍ للعين وخادماتٍ يطفْن أرجاء القصر، و رأيت صاحبه يجلس مستلقيًا أمام حمام السباحة وحين تقدّم أبي ليصافحه، خلع ثوبه وقفز في الماء وجعل يحدثه ويأمره وهو على تلك الحالة، وحينما تحدث إلى الخادمة أمرها بإحضار زجاجةٍ للمياه الغازية و أردف يقول : زجاجةٌ واحدة وتعطيها لهذا الصغير .. دارتْ عيناه داخل محجريهما وأطرق حين قال له صاحب القصر: أنا أعرفكم جيدًا ولا أحب التعامل معكم أنت ومن جاء من بلادكم. تطايرت تلك الكلمات وشكلت فوق رأس الرجل أفاعي سامة تستعد للقفز علينا مشهرةً أنيابها في وجوهنا، ووجدتني وكأنني أرى أنّ عمامة جدي الخضراء قد سقطتْ وتكالب عليها الناس لركلها يمينًا ويسارًا، ووجدت أبي يعدو بسرعةٍ خلف العمامة وكلّما ذهب إلى أحدهم ركلها إلى الآخر ثم وقف وقدْ ضاقتْ به السبل في إرجاعها، نقلت بصري ناحية جدي فوجدته يقف وقدْ امتلأت عيناه بالدموع. تشبثت بكف أبي وضغطت عليها بقوة وجررته إلى الخارج متعللاً بأنني أريد النوم مبكرًا. تصبب العرق من وجه أبي واستأذن وهممنا بالانصراف. كانتْ ظلمة الليل تغطي الأجواء ورأيته يزفر ويخرج من أنفه ضبابًا أبيض اللون مثل الحصان الذي أتعبه السير، وظلّ يصهل حتى ضاعتْ صيحاته في فضاءات الزمن أو كطائرٍ مبتل بماء الغربة والسفر يحاول أنْ يعود ...

أنا الآن سأحكي..

طبق أرزٍ بلبنٍ دافئ يؤكل في عجالة استعدادًا لسماع الحكاية، الوقت بعد العشاء ولسعة بردٍ خفيفة تتسرب من بين فتحات النافذة الخشبية، جلستْ متربعةً على السرير وتحلقْنا حولها، نظرتْ إلينا ورفعتْ رأسها قليلاً وتأكدتْ أنّ الغطاء يغطي كامل أجسادنا النحيلة ثمّ قالتْ: سأحكي لكم اليوم حكايةً (ذات الرداء الأحمر).

" كانت الفتاة ترتدي كلّ ملابسها باللون الأحمر فستانٌ أحمر وفيونكة حمراء، حذاءٌ أحمر وجوربٌ أحمر تستقبل الطريق كلّ صباحٍ كي تذهب إلى جدتها ".

قال أحد الأطفال: لماذا يا جدتي الذئب يأكل الإنسان والثعلب يخاف من الكلب ولا يأكل الإنسان؟

وقال طفلٌ آخر يتكئ برأسه على كتف الجدة يجاهد النوم بشدة: ولماذا أنت عجوزٌ وقرب موتك؟ هلْ كلّ العجائز سيمتن؟

وقال ثالثٌ وكان أصغرنا سنًا:

أنا أحب ذات الرداء الأحمر ولا أحب الذئب ثم سكت برهةً وقال: لماذا تحذر الأم من قطف الأزهار؟ وما فائدتها؟ وهي هكذا ننظر إليها من بعيد ألا يجب أنْ نقطفها كي نهديها إلى من نحب؟

ولماذا تحذر الأم أيضًا من أنْ تسلك ليلى طريقًا آخر؟ هلْ كلّ الطرق موحشةٌ فيما عدا ذلك الطريق؟ وكيف عرفت أنها كذلك؟ هلْ سلكت الأم أيًا منها؟

تنفرج شفتاها قليلاً وتبتسم ابتسامتها الواثقة والتي أعرفها جيدًا حين تكثر الأسئلة من حولها «علينا أنْ ننتظر حتى أكمل الحكاية وسيبقى متسعٌ من الوقت للإجابة على الأسئلة "

وهنا قفزت من تحت الغطاء وقدْ أصبحت كبيرًا لا أحمل وجهًا طفوليًا ولدي شاربٌ كثٌ وجسدٌ لمْ يعدْ نحيلاً ثمّ قلت كلاّ يا جدتي أنا الآن سأحكي ...

- اهدأ قليلاً كي أكمل ...

- كلا يا جدتي أعلم أنّ ليلى لمْ تستمعْ لكلام الأم وهذا هو الدرس المستفاد الذي قلته لنا من قبل عشرات المرات، أمّا اليوم فأنا سأحكي لك.

"لازلت أذكر هذا اليوم حين وضعت يدك المرتعشة على رأسي و قرأت بعض الآيات، وحكيت لي عن جدي الذي كان يتقاضى عشرة جنيهات في الشهر، وعن أسعار السمن واللبن والبيض، وضحكْنا عندما قلت أنّ منْ ينزل السوق بربع جنيه يصبح من أثرياء القرية، وأنّ جدي لمْ يعاقبْ أمي سوى مرتين؛ مرةٍ عندما ضربت الولد الضعيف عند سور المدرسة ورمتْه بحجرٍ أسال الدم من أنفه ورأسه، والمرة الثانية حين تعلقت بالعربة التي يجرّها الحصان؛ لأنها شعرتْ بألم في قدمها والطريق لازال طويلاً أمامها، وضحكت عندما قلت لي : إنّ خالتي ابتاعتْ ليمونًا كبير الحجم نسبيًا على أنه برتقالٌ والرجل أكدّ لها أنه برتقالٌ من نوع جديد.

جدتي دعيني أحكي لأنني في هذا الصباح عاودت دقّ الهاتف الخلوي « الذي لا تجيدين استخدامه» عشرات المرات، ولا مجيب ساعتها؛ كنت ترقدين بسلام تاركةً شعرك الأبيض المختلط ببعض الحناء منسدلاً على السرير، ووجهك الأبيض ازدّاد نورًا وبهاءً، بكيت وخبطت على الحائط عدة خبطات وقلت تمهلي قليلاً يا جدتي فلمْ أكملْ لك بقية الحكاية.

سمعت صوتك قادمًا من أغوار سحيقة ...

قالتْ جدتي: لا تبك إنْ متُّ، وأنا قلت لك أيضًا إنّ الباب قد وهنتْ أخشابه وأصبح هشًا في أي وقتٍ سيفتح وتنطلق منه رحلتي.. رحلتي التي أنتظرها من زمنٍ بعيدٍ وقد حكيت لك أنني رأيت جدك في اليقظة يأخذ مني كوبًا من الماء ويشربه ويربت على كتفي ويمضي.

ساعتها قلت لي: يا بني شعرت بأنني خفيفةٌ مثل الريشة أنتقل من سماء لأخرى ومن فضاء لآخر، هنا يا بني لا شيء سوى الظلمة إذا أردت أنْ تتحسس وجهك، جسدك، قلبك، لا تجدهم هنا ولكنهم هناك يدورون في مدارات الزمن المنقضي، لا تستطيع إلا أنْ تجيب هذا النداء القوي.

رددت بسرعة:

جدتي ما هذا الكلام؟ أنا لا أفهم شيئًا مما تقولين ولكنْ دعيني الآن أنا أحكي لك "فبالأمس حلمت بأنني أجلس وأدخل قدميّ النحيلتين داخل فتحات نافذة على شكل قضبان حديدية متوازية (كي لا نسقط منها)، ورأيتك يا جدتي أسفل النافذة في الشارع الضيق الرطب تسرين في جماعة يشع من وجوههم النور، نظرت إليّ ورفعت يدك قليلاً تلقين التحية، فرحت لرؤيتك وهبطت الدرج مسرعًا ولمْ أجدْك، ثم دخلت غرفة كل من فيها من الراحلين، كانوا بانتظارك على شكل صفوف، كلهم يبدون أصغر كثيراً من أعمارهم، فالمكان دون معالم وكأن الزمن قد توقف.

في مشهدك الأخير دارت في رأسي العديد من الأسئلة، حين وجدتك وقد فارقت الحياة أأخبر أعمامي وأخوالي أم لا؟ أم أحضر طبيب الصحة؟ أم أصرخ بأعلى تاركاً للآخرين فرصة التصرّف، أأنتظر أم أتصل بكل أفراد العائلة الآن؟

في غرفتي ليلاً عاد المشهد كما كان في مخيلتي، وظل الصغار يستمعون إليها وهي تحكي وتخيلتها تقول في حنو بصوتها المعهود

- ألم يكفك مقاطعة انتظر حتى أكمل بقية الحكاية.

ليلى والذئب..

"كانت الأم تعد لها الطعام وتكرر التحذيرات بالسير على جانب الطريق وعدم الحديث مع أحد....

الآن وبعد مضي بضعة أيام على انتهاء مراسم العزاء والدفن، دخلت الحجرة ونظرت إلى ما تبقى من جدتي، العصا والنظارة الطبية السميكة، كل شيء شاردٌ وصامتٌ في أرجاء الغرفة، حدثتها وقلت جدتي ألم أقل لك أنني لا أحب تلك النهايات.

حكايةُ الرّجل الذي ضحك

كانت كلّ جسده يهتز بشدةٍ ليس بفعل الخوف أو الغضب وإنما كان يضحك.

بملابس رثّةً وحذاءٍ مفتوحٍ من كلّ اتجاه، كان يجلس على الرصيف يغني «رميت الورد طفيت الشمع يا حبيبي»، ثمّ يخرج آهةً حارةً، ثمّ يعود ويكرر «رميت الورد طفيت الشمع يا حبيبي»، وتخرج رغمًا عنه آهةٌ أكثر حرارةً وأشدّ لوعةً، دار في رأسه ما حدث في الصباحات الفائتة وسأل نفسه: ماذا كان يغني؟ يحدق في الطريق يرى الشوارع متداخلةً ملتويةً ومستقيمةً يبتسم لا يعرف لماذا؟

جلس بجانبه أحد الرجال.. نظر إليه قائلاً: ماذا أصاب قدمك وجلبابك؟ فقدمك حمراء منتفخةٌ قليلاً وجلبابك به من الأسفل بعض آثار الحرق؟ ضحك ولا يعرف أيضًا لماذا يضحك؟ ثم وجد نفسه يغني أغنيةً أخرى لا يتذكر منها سوى اللحن، تذكر أنه حين غنى تلك الأغنية كان صبيًا يحمل «شيكارة» الرمال، ويصعد بها الدور الرابع أو الخامس، تحسّس رقبته فوجدها لا تزال خشنةً من كثرة الحمل عليها، انتبه إلى الجالس إلى جواره وردّ عليه قائلاً: طفلي الصغير الذي كبر كان يجلس بالصف الأخير لا ينجح ولا يبتسم، ولا يكره في الدنيا غيري، ذهبت معه إلى المدرسة فكان لا يريد الدخول و إذا دخل لا يجلس إلا في أحواض الزرع الكبيرة التي تزين فناء المدرسة، يضربه الفتى السمين ولا يتوقف عن السخرية منه، يتجمع أقرانه يضحكون عليه وهو يمسح أنفه بمنديل القماش المتسخ، يبكي فأحتضنه، وآخذه هو وحزني و قلة حيلتي وأنأى بنفسي وبه، نستند بظهورنا إلى السور الخارجي، أداعبه ثمّ أحاول أنْ أجعله يضحك.

ذهبت إلى المدير أستجديه أنْ يساعدني في إقناعه والذهاب به إلى الفصل، نهرني بشدة وقال: خذْ أوراقه واذهبْ به إلى العمل في الفاعل مثلك، طفلي الذي لا يحفظ ولا يفهم، ولا يكفّ عن توزيع البصاق طوال النهار على كلّ منْ يقابله من الصغار أو الكبار أو حتى السيارات الرائحة والغادية، استدرت إليه ذات يوم وتغلبت على عاطفتي وصفعته بشدةٍ على وجهه الصغير الذي لا يقوى على مواجهة ًالعالم فارتجف، واهتزّ جسده النحيل، وقاوم رغبةً ملحةً في البكاء، وحمل حقيبته ومضى إلى الفصل في هدوء. ساعتها شعرت بغيوم رمادية تتساقط من السماء، يستحيل لونها إلى البني ثم الأسود فتغطي عيني... انقطع الحديث بينه وبين الجالس إلى جواره وجاءت اللحظة التي يتمناها ويخشاها في نفس الوقت.

ككلّ يوم يأتي الرجل ذو الجلباب النظيف الذي يستقلّ سيارة النقل، والذي يشير إلى الجموع الجالسةً ليختار منها من يشاء، تتدافع الأنفار وتنطلق صوب السيارة يأخذون أماكنهم، ترتفع أصواتهم وتحدث جلبةً كبيرةً نتيجةً لتعاركهم المستمر، أمّا هو فيسير تارة ويركض تارة فيسقط ويقف ويترنح، يخشى السقوط مرةً أخرى، يمدّ يديه ناحية القائم الحديدي للحاق بالسيارة، فيصطدم بالأجساد المتدافعة والمتلاحمة. وكما يحدث في معظم الأيام، تنطلق السيارة بدونه، فيرى وجهه في زجاجها الخارجي، يشعر بالقلق، يمسح جبينه المتعرق من حرارة الشمس بطرف جلبابه المتسخ، السيارة تختفي و يبتلعها الطريق، يشعر بنشوةٍ خاطفةٍ لم يعرفْ مصدرها، يجد نفسه يحلق في فضاء لا يعرف له آخر، ويعزف لحنًا يمتزج فيه الحزن بالمرح الساخر، تمنّى لو أنهم قاموا بغناء موالٍ ريفي يطربه فيحرك رأسه في نشوةٍ عارمةٍ، أو يجري بين الحقول كطفلٍ يعبث بالفراشات والزهور الملونة، داهمتْه رائحة الفول بالسمن البلدي مختلطةً برائحة الشاي الصباحي، وحين استدار انتبه ليجد الرجل الذي كان يحادثه لا يزال يجلس بجواره وقدْ بدأ يلتهم الفول ويشرب الشاي، أشار إليه أن اجلسْ وشاركْني الطعام، وما إن استقرا مرةً أخرى على الرصيف وبدأ يأكل؛ حتى قال له الرجل: فلتكملْ ما كنت تقول ... نظر إليه وهو يتنفس بعدم ارتياح وقال: كان يخلع ملابسه في الشتاء ويساعدني في الفاعل، وكنت أوصيه بعدم التهور فاليوم جسمك يساعدك وغدًا سيحاسبك، كان يمط شفتيه امتعاضًا ولا يكترث لما أقول، حتى سَنحت له الفرصة للعمل في ليبيا فتركني وسافر، وحين عاد قرّر أنْ يتزوج، وكان يسكن في الشقة المقابلة لشقتي ثم ماتتْ زوجتي وجلست بمفردي، سكت برهةً ثمّ أردف قائلًا: آه نسيت كنت تحدثني عن الحرق الظاهر في قدمي وحواف جلبابي السفلية، نعمْ تذكرت كنت قدْ صحوت من نومي متأخرًا، طرقت الباب على زوجة ابني في الشقة المجاورة، وطلبت منها أنْ تحضر لي طعامًا، سمعت صراخها من خلف الباب وهي ترميني بسيلٍ جارفٍ من السباب والشتائم، ثم اتصلت بزوجها وجاء على الفور، صرخ في وجهي وقال: من اليوم فصاعدًا أعدّ طعامك بمفردك وها هو الموقد ثم جرى، و خلع خرطوم أسطوانة البوتاجاز وأشعل فيها النار وألقاها على قدمي فاحترقتْ وتآكلتْ حواف جلبابي، جرى أهل القرية ناحيتي وأنقذوني وأمسكوا به ثمّ أوسعوه ضربًا وركلًا، فقلت بصوتٍ واهنٍ : اتركوه و... أراد أنْ يكمل لكن غلبه البكاء. خلع حذاءه وعمامته وأدخل قدميه في الطين، فشعر ببرودة وكأنه يستسلم لخدرٍ ممتع، قلّت: حرارة الشمس وشعر أنّ النهار قد ولّى، قام من مجلسه، وشعر أنه يخف شيئًا فشيئًا.. يطير في الفراغ.. يُجاور عصفورًا يطير بسرعة يريد اللحاق بسرب العصافير، يشير له بيده.. يضحك حتى تدمع عيناه.

قام من مجلسه وأخذ يصدح بالغناء وهو يسير في طريق العودة.

"وقولتلي راجع بكرة أنا راجع"

الـزّيــارة

منذ زمنٍ بعيدٍ هجر النوم تلك القرية وقرّر أنْ يرحل دون عودة ...

أمّا سكان القرية فكانوا يعشقون السهر حدّ الجنون، أخذ النوم حقيبته ومضى عبر البحر إلى طريقٍ لا يعرفه أحدٌ ، أصبحت البيوت بلا أسِرّة، الحيوانات والطيور تسمع أصواتهم طوال اليوم، الحياة أصبحتْ صاخبةً، ضجيجٌ متواصلٌ لا يهدأ، لا نسماتٌ ليلية رقيقةٌ تدعو إلى الاسترخاء ولو قليلاً، تحولت العيون إلى اللون الأحمر الدموي، و بدت الجفون بنية اللون واسودت الملامح من قلة النوم؛ مما جعل السكان يفكرون في الطريقة التي يعود فيها النوم إليهم، حتى إنّ بعض الصغار لا يعرفون معنى النوم أصلاً لأنهم لم يعتادوا عليه، سأل طفلٌ والده ما النوم يا أبي؟ فرد قائلاً: هو أنْ تغمض عينيك بعض الوقت.

قرّر سكان القرية البحث عن النوم، فقاموا بشراء أسرّة جديدة، وعملوا طوال النهار، ومكثوا دون عملٍ طوال الليل، ولكن دون جدوى، حتى جاء أحدهم وقال: سمعت بوجود النوم في القرية المجاورة، هيا بنا نذهب و نحدثه ليأتي معنا، ذهبوا إليه ورأوه مثل ظلٍ متسعٍ ممتدٍ في أرجاء القرية، حين دخلوا إليه انتابهم بعضٌ من الخدر اللذيذ، ودوا لو أنهم لا يفيقون منه أبدًا، وحين رآهم انتصب واقفًا كان الظلّ ينحدر من أعلى إلى أسفل، تشكلتْ ملامحه أمام أعينهم بجسدٍ ممشوقٍ محاطٍ بالضباب ووجهٍ مظلمٍ لا يُرى منه سوى عينين غائرتين وصوتٍ مهتزٍ كأنه قادمٌ من مكانٍ بعيدٍ. عقد يديه خلفَ ظهره ونادى في الجميع أنْ يجتمعوا إليه فلما اجتمعوا إليه قال:

"أنتم ودعاءٌ وطيبون وما أنا سوى صورةٍ مصغرةٍ للغياب الدائم، أو غيبٍ مؤقتٍ عن حس الحياة الصاخبة، هجرتكم عندما هجرتموني واليوم أتيتم لأنّ الكثير منكم يحتاج وجودي، اذهبوا الآن وربما آتي إليكم قريبًا".

همس بعضهم وهم في طريق العودة «سيأتي قريبًا لأنه من المخلوقات التي لا تعرف الكذب»

في أحد الأيام قرّر أنْ يعود لأجلها ولآخرين، في تلك الليلة كانتْ في بيتها أمام البحر، كانتْ تطلّ عليه من أعلى وهو يجوب الطرقات ليلاً جيئة وذهابًا، فوجئتْ بشكله و بتغير ملامحه فهي لم تره من قبل بصورة مجسمة، فرحتْ فرحًا شديدًا، افتقدتْه وأحبتْه كما لم تحب أحدًا

من قبل، اشتاقتْ كثيرًا لعناقه، كان مظهره غريبًا – ليس كما حكى عنه أهل القرية عند زيارتهم له - رأته يحمل حقيبة معلقة على رقبته، يُطل منها طفلان، ارتاحت لطفلٍ منهما دون الآخر ولا تعلم السبب في ذلك.

وقف على الصخرة المقابلة لبيتها، و صرخ باسمها بأعلى صوته، فرحتْ وقفزتْ ودارتْ بتنورتها أمام المرآة مراتٍ عديدة، ثمّ أسرعتْ إلى النافذة وأشارتْ إليه بالصعود فلكم تمنتْ أنْ يأتيها، حين دخل عليها غرفتها مسح بظاهر يده على جفونها المتراخية، وحدّثها أنه يحمل طفليه الصغيرين ويريد أنْ يستريح على أقرب مقعدٍ، أكّد لها أنه سيمكث عندها أيامًا قليلة ثمّ يمضي لحال سبيله، وقال لها أنه جاء لتحسين بعض الأوضاع بداخلها، وأخبرها أيضًا أنّه يشعر بها تمامًا وأنه حزينٌ لحزنها، وأنه يريدها أن تحكي له كلّ ما يدور في خاطرها. في البداية غضبتْ لأنّه تركها ولمْ يعدْ منذ فترةٍ طويلةٍ بلْ وترك القرية بأكملها، ولكنّها تحتاجه بشدةٍ، ارتَسَمت علامات الدهشة على وجهها حين أشار وقال: إنهم أبنائي، ثمّ أكمل حديثه، يسير ثلاثتنا دفعةً واحدةً ولكنّك لا تشعرين إلاّ بي أنا ... وأنا وحدي فقط.

في البداية يجب أنْ نسترجع ما جرى، أشاحتْ بوجهها بعيدًا ونظرتْ نظراتٍ مستطلعةً، وأخرَجت كلّ الجرعات الحزينة مرةً واحدةً.

اهتزت الدموع داخل مقلتيها ولمع ضوءٌ أصفر باهتٌ انعكس فأعطى بريقًا خاصًا، حمل في طياته مصدر الحزن، تنهدتْ بعمقٍ وقالت: منذ سنين وأنا آتي لهذا المكان، البحر هو البحر والموج هو الموج، ولكنّه في تلك الأثناء كان ثائرًا يضرب بكلّ قسوةٍ الصخور المتجاورة المستكينة لتلك الثورة التي لا تهدأ، من بين الصخور لوّح لي بيده الرقيقة «أنا هنا «، انطلقتُ أقفز باتجاه الصوت، أبحث عنه وسط الصخور، يتكرّر الصوت وأقفز باتجاهه، أبحث عنه من صخرةٍ لأخرى، حتى وصلت إلى آخر صخرةٍ، بعدها اختفى كل ما كُنت أقفز عليه، وحين قفزت مرةً أخرى ولكن إلى الخلف كان صغيري الآخر يجلس بانتظاري أعلى الشاطئ، لمْ يلوحْ لي بيده ولكنّه كان يبكي، ويقول يا أمي إنّ أخي لا يحب الماء والرمل والشمس، ولا يحب رائحة الملح، ضممته إلى صدري وسرت إلى البيت، ولكنّني توقفت لحظةً ونظرت وارتعش جسدي، حينها رأيته يلوّح لي بيده الرقيقة من بين الصخور، وحين أسرعت إليه وجدت البحر قدْ أرسل لي آخر موجةٍ تخبرني بأنه لمْ يعدْ يستطيع التلويح بيده الرقيقة من بين الصخور.

منذ ذلك الوقت لم تزرْني حتى أصبح شكلي كما ترى، أنا كنت أحتاجك أكثر بكثيرٍ من كلّ سكان القرية لأنّك الوحيد الذي تحمل بعض الغياب المؤقت عن الواقع المرير الذي أعانيه، كان صغيري يستطيع النزول من البيت ليأتي باللعبة التي ألقاها من النافذة وكان يقول

لي: هناك صخرتان على الشاطئ تلوحان لي، وحين مال بظهره لالتقاط اللعبة احتضنه الموج ومضى.

حزن لحزنها وقرّر أنْ يعطيها جرعةً كبيرةً حتى تستريح، ربت على كتفيها ومسح بظاهر يده على جفونها المتراخية وعيونها الدامعة، فنامت نومًا عميقًا حتى إنه قيل بعد ذلك: إنها لم تستيقظْ مرة أخرى ...

رَبابَـة

لم يمض وقتٌ طويلٌ منذ دخَلتْ في الصباح بصحبة صغيرها إلى المستشفى الأميري وخرجتْ منه بعد حوالي نصف ساعة، مجرد شجارٍ عادي بين الأطفال - أبناء العمومة - تطوّر لجرحٍ غائرٍ في الرأس بسبب زجاجةٍ ألقيتْ عليه من المسافة صفر، استوجب الأمر التدخل للخياطة - سبع غرز فقط لا أكثر- تمتدّ بطول الرأس، الشاش يلتف حول رأسه بالكامل، و قدْ استحال لونه إلى الأحمر واختلط بعض الميكروكروم مع الدم وأثر الغرز يظهر بوضوحٍ مثل الشوك أسفل الرباط ، أخذَتْ معها ما تجلس لتبيعه في مدخل القرية ... بعضٌ من السمن البلدي والجبن القريش تضعهم في وعاءٍ كبيرٍ فوق رأسها، أحسَّتْ بغصة حين تذكرتْ أنّه الصبي الوحيد على أربع بنات، ومرّتْ الذاكرة بمعايرة السيدة العجوز لها، وأنها حين قالتْ إن السبب في ذلك الرجل وليس المرأة، أمرت العجوز على الفور بالحبس والضرب لثلاثة أيامٍ متتاليةٍ في غرفةٍ مخصصةٍ للعقاب بلا إضاءةٍ أوْ طعام، فقط صنبور المياه يمكنها الشربَ منه، أمّا عن الضرب والصفع والركل ولعن الأب والأم والجد فكان لها منه النصيب الأوفر، ثلاثة أيامٍ لا تستطيع رفع ذراعها لتناول أو حمل شيء، أسلمتْ عينيها إلى السماء وتمتمتْ بكلماتٍ غير مفهومة.

في الطريق وما بين ارتعاش جسدها النحيل من ثقل ما تحمل ولهيب أنفاسها اللاهثة، لا يزال الصغير يمسك بيده المتسخة طرف جلبابها الفضفاض، يقضم قطعةً من الخبز ويتحسس رأسه المتعب بين الحين والآخر، يصرخ و يتوعد ابن عمه وينعته بالنعجة، وبينما هو يحاول أنْ يسير مسرعًا يريد اللحاق بخطواتها العجلى تتساقط منه قطعٌ صغيرةٌ مما يأكل ، راح يشدّها بقوة حين تناهى إلى سمعه صوتٌ يحمل نغمةً شجيةً، توقف لبرهة وهي تسير، حين انتبهتْ ربتتْ على رأسه وقالتْ سأعطيك في البيت ما تريد، صرخ في وجهها لا أريد، مسحت العرق الغزير المتساقط من جبينها بيدها، وقالتْ: سأعطيك ما تشتري به لعبة، ووضعتْ يدها داخل الوعاء وأعطتْه قطعةً من الحلوى، صرخ مرة أخرى وألقى بالحلوى في مياه الترعة، وأخذ يتخبّط ويصيح.

تركها وسار هو ناحية الرجل الذي يصدر منه الصوت التفتتْ خلفها فلمْ تجدْه ، قطعت الشارع بسرعة ودارتْ برأسها يمينًا ويسارًا، راحتْ تبحث عنه وسط الصغار الملتفين حول الرجل، وحين وجدتْه ونظرتْ إليه بحدة أطرق برأسه إلى الأرض ينتظر صفعةً قويةً، أحنتْ رأسها ناحيته وأطلقتْ همهماتٍ غير مفهومة بوجه حاد الملامح، امتعض وجه

الطفل و راح يصرخ ويضرب الأرضّ بقدميه، ثم ازداد التصاقًا بها يلتف و يمسح دموعه و يكتم صرخاته بذيل جلبابها المتسخ، أنزلتْ ما كانتْ تحمل على الأرض ووضعتْ يدها داخل الجلباب وأخرجتْ نقودًا أعطتْها للرجل وابتاعتْ له واحدة .

قفز الولد من شدة الفرح وراح يعزف كما يفعل الرجل؛ فجاء الصوت مخنوقًا، أعاد الولد العزف فجاء الصوت هزيلاً وغير منتظم، قلّبها الولد وعدّلها حتى أعيتْه الحيّل، حزن مرة أخرى وصرخ وأراد أنْ يعود للرجل ولكنّها نهرتْه وهزتْه ناحيتها بعنفٍ، فكفّ عن البكاء رغمًا عنه وقرّر أنْ يعيد المحاولة في البيت، وبينما هما يخترقان الشارع بقي الصوت حيًا يتسرب من بين المارة ليصل إلى أسماعهم ....

صورٌ مؤجلةٌ لموتٍ محقق

منذ ذلك الحين وأنت تريد أنْ تموت..

كطفلٍ يحاول تسلّق سور البلكونة، يرى الماعز يمضغ شيئًا من بعيد، يضع فمه في الفتحات الحديدية لسور الترعة، يسأل ببلاهة: هلْ الماعز تأكل الحديد؟ فيقال له: لا ويضحكون. كنتَ هكذا حين مرّ من أمامك طفلٌ ملفوفٌ بقماشةٍ بيضاء ينعكس منها ضوء الشمس فيحجب الرؤية قليلاً عن عينيك، تضع يدك على رأسك تحاول منع الضوء، تَرى بعينين ضيقتين الطفل، تُحاول معرفة شكله، تَرحلُ ولو لثوانٍ معدودة إلى عالمه، بماذا يشعر الآن؟ من ظلمة كان فيها إلى ظلام دامسٍ ليس بعده نور. يحمله رجلٌ يتساقط من جبينه العرق ويبدو على ملامحه البكاء، وٍخلفه يسير بعض الرجال في خطوات منتظمة، المقابر على بعد خطوات من منزلك، في الشارع المظلم، الضيق، الرطب.. دخل الرجل يحمل الطفل وخلفه الرجال.

تَدخلُ الغرفة فتجد أمك نائمةً تحتضن الهواء، تحاول فرد ذراعها وتحشر رأسك بينه وبين كتفها، فتنتبه وتربّت على شعرك، كنت غارقًا في الدفء، حينها قالتْ لك: أنت خائفٌ ثمّ سكتتْ برهةً: أكيد مرتْ جنازةٌ أمامك وأنت في الشرفة.

نائمٌ في حضن أمك، يتساقط فوقك نسيج الأحلام الأبيض الناعم، انتبهت فوجدت نفسك نائمًا في قماشة بيضاء، رائحة الغرفة تشبه رائحة المخدر الطبي، كنت مستغرقًا في موتك، الروائح تنحسر شيئًا فشيئًا عن أنفك، حالة موتٍ جيدة وجديدة هكذا بلا صخبٍ بلا ضجيج. حركت رجلك لأنك تريد أنْ يكتمل احساسك بموتك.

عليك أنْ تتذكر الآن عندما حكَتْ لك أمك حين كان وجهها أصفر صفار الشمس قبيل الغروب، تتمدد على الأريكة الخشبية تصرخ وتضع في فمها قماشة تضغط بأسنانها عليها بقوة حتى توزع الألم. كان صوت الليل والجرف والترعة والناي الذي يعزف في مسلسل (حسن ونعيمة) «يا دنيا يا أم الشمس والليل والقمر ...عصفور بيدور يدووور يغنى على الشجر «وتتر مسلسل (غوايش) « وفي الليل وفي التباريح يتقلبوا المجاريح»و«معلا قانون» يشكلون معنى حقيقيًا بأنك موجودٌ.

حالة موت عادية كما قُلت لك، حمى ارتفاع غير عادي في درجة الحرارة، ناهيك عن مرض القطط الذي صاحب أمك طوال فترة الحمل؛ كل هذا كان من السهل أنْ تموت.

صرَختْ جدتك وبدت تجاعيد وجهها أكثر مما هي عليه بحوالي عشرات السنين، بعدها بيومين أصَرّتْ جدتك أنْ تلبس والدتك خيطًا أبيض من الحرير تضعه في رقبتها مكان السلسلة، لأنها كما قالت الجدة قدْ شهرتْ وهذه هي المشهرة وحتى تنجب أطفالاً يعيشون في المستقبل.

****

الآن وحين نهَضْتَ من جانب أمك، تحسست رأسها وخديها، وداعبت شعرها الأبيض المسترسل، لمْ تشعرْ بوجودك، وانتبهتْ لوجود المشهرة ... لا تزال معلّقةً في رقبتها.

عُـلا

خرجتْ أمي من غرفتها ظهرًا تناديني بصوت واهنٍ، تدعك عينها.. الآن تذهب إلى عُلا، قلت: في عزّ الحر، ضيّقتْ عينيها في غضبٍ مكتومٍ وقالتْ بحدّة: نعم ورفعتْ حاجبها إلى أعلى، خِفت وتراجعت وقلت سأذهب.

أبي يجلس متربعًا أمام الدار يضع يديه أسفل ذقنه ويعبث بعصاه في التراب والحصى، أعلم أنه يتابعنا لأنّه يختلس النظر إلى أمي بين الحين والآخر، وبعد برهةٍ سَمِعتُ خطواتِها تَدُق الأرض بعنفٍ.

شخصتْ أمي ببصرها بعيدًا، وتنهّدتْ ثمّ قالتْ: أتذكر يوم قُلتُ لك: ابحثْ عنها وأنت صغير، كُنتُ قدْ غفوتَ وحَلُمت بها نهارًا وقت القيلولة، كادتْ أنْ تقع في بئرْ أغواره سحيقة، وكانتْ ترتعش وتَضفُر جديلتها، وتُغني و تمضي نحو البئر، تُميل رأسها مع الدلو المعلّق أعلاه، كان في البئر طفلٌ أسمر اللون تُضيء عيناه في ظل العتمة، كانتْ علا تنادي الطفل لا تخف: أنا قادمة، كان الصوت يتردد صداه داخل البئر، والطفل يرفع يديه مستجديًا أنْ تهبط وتأخذه، يتردد صدى صوته هو الآخر بهمهماتٍ غير مفهومة، وحين استيقظتُ وأرسلتُك إليها وجدتها على السطح، كانتْ تسير على الحائط الفاصل بيننا وبين بيت الجيران، وكان الصغير ابن الجيران يناديها للعب في الأسفل...

أما اليوم فقدْ حلُمت بها تمسك إناءً ساخنًا تتألم منه بشدة، ولمْ تستطعْ إلقاءه بعيدًا عنها، كانتْ تصرخ وتقفز من شدة الألم، ولا يزال الإناء ملتصقًا بيدها، كانتْ تجلس فيما يشبه كوخًا صغيرًا، تستمع إلى بعض المقاطع الحزينة، تُحرك بملعقة خشبية ما بداخل الإناء بحركات آلية، وكأنها لا تهتم بما تفعل ولا تنظر داخل الإناء. كان شعرها متسخًا تتراكم عليه عوالق من الطين الجاف، ويتساقط رغمًا عنها في الإناء، ترتدي قرطًا من البلاستيك، يتدلى من أذنها وتسيل من مكانه قطراتٍ من الدم.

تَنهّدَت بعمق وهي تحكي وقالتْ: لا تنزعجْ لعلّه خيرٌ بإذن الله ولكن اذهبْ فورًا ولا تترددْ.

ذهبت وكنت أراقب الطريق بعينٍ نصف مفتوحة من ضوء الشمس المبهر، رأيت الأنفار في داخل الحقل بأنفاسهم المتقطعة من شدة الحر، قلت في نفسي: «عُلا» من حقها أنْ تحبّ وتتزوج، وقد احمرّ وجهها خجلاً حين جاء أحمد لطلبها، وسَهرتْ ثلاث ليالٍ كاملة أمام النافذة حتى ردّ عليه أبي بالرفض، ثارتْ وحبستْ نفسها طويلاً في غرفتها، وحين

خرجتْ كانتْ عيناها تدوران في محجريهما بسرعة، وبدتْ عظام وجهها بارزةً وظهرت أسفل العينين بقعٌ بنيةٌ داكنةٌ، وحين تحدثتْ وجدْنا صوتها قدْ بُحّ من شدة البكاء والنحيب واحتضنت أمي.

حين وصلتُ شعرت بأنّ البيوت كلّها في انتظاري، وشعرت ببعض النسوة يتلصْصن من خلف النوافذ، دخلت فوجدت صغيرها يتمطى بكسلٍ أمام الدار يمسك بقطعة من الخبز البلدي الجاف يحاول قطمها، يسيل لعابه عليها، ولا يرتدى سوى فانلةٍ بيضاء بحمالات، ويبدو أنه كان يبكي، كوّر يديه على عينيه، وابتسم لرؤيتي « أهلا ياخالو» مسحت على شعره وناديتها بصوت مسموع.

خرجتْ من خلف ستار يفصل المندرة عن المطبخ، بدتْ شاحبة الوجه تحاول رسم ابتسامة على شفتيها اليابستين، يدها المبللة بماء مختلط برغاوي الصابون تمسحها خلف ظهرها، وتمدّ يدها بالسلام وهي تلم ملابسها على رأسها.

بعينين منكسرتين وبرائحة فم تشبه رائحة الكبدة المشوية قالت: كيف هي أخباركم؟ قلت: أنت كيف أخبارك ... أمي أرسلتْني لأشتري لك ما تحتاجين، قالتْ: لا أريد شيئًا فأنا أطبخ لحمًا وأصنع ثريدًا كلّ يوم تقريبًا وضحكتْ، جذبتْني من يدي وعلى وجهها رُسمت ابتسامةً مُصطنعةُ وقالتْ تعالى لأريك. الحجرة ذات سقف منخفض رائحة المواشي داهمتْ أنفي من قبل أنْ أدخل، حدثتني عن أحمد وعن طيبة قلبه، ولا أدري في تلك اللحظة ما الذي دفعني أنْ أرفع غطاء الإناء، وحين هممت برفعه وجدت في عينيها نظرات خوفٍ، وحين نظرت داخل الإناء وجدت الماء يغلي دون لحمٍ أو ثريد..

للحبّ أُغنيةٌ وحيدة

ذاع الخبر داخل المدينة بأنّ أحدهم قدْ عبر الشاطئ ورأى الحوريات يجلسْن شاخصاتٍ بأبصارهنّ نحو السماء ينتظرْن أمر الذهاب إلى الجانب الآخر، وأنّ الذي ذهب إليهم قال « هناك رائحة الحب تفوح في كل الأرجاء، رائحة حبٍ لا مثيل لها، رائحة حبٍ بلا فقدٍ، حبٍ بلا خوف.. حورياتٌ يرفضْن أنْ يَذكر أسماءهن التاريخ، لأنهنّ بداية التاريخ ونهايته، هناك لا تقبل الحقيقة امتزاجها بالوهم « بعد تلك الكلمات فقد عقله وسقط مغشيًا عليه، ثمّ أفاق بعد لأيٍ وأخذ يعدو ناحية الصحراء يتطاير من فمه البصاق، يغني أغنيةً لا نستطيع أنْ نسمع منها سوى اللحن. بعد فترةٍ ليستْ بالقصيرة جاء منادٍ ينادي كلّ منْ في الجزيرة أنّ الحوريات قادماتٌ لا محالة، ولكنْ هناك شرطٌ أساسيٌ لكي تحظى بحوريتك وهو أنْ تحفظ أغنيةً عن ظهر قلب، وترددها حتى إذا جاءتْك حوريتك، ودقتْ عليك الباب فتحتْ وغنيت لها تلك الأغنية، ستبتسم لك وتأخذك معها إلى الجانب الآخر من الشاطئ. شهق شهقةً حتى ظننا أنه فارق الحياة ولكنّه عاد وأردف قائلاً: «حبيبتك سجينة الشوق، وتنتظر المفتاح، حبيبتك تصلي سرًا كي يتمّ اللقاء بينكم، هي تخبرك من خلف حواجزها أنّ قيودها أشواكٌ، وأنّ قلبها غضٌ لا يتحمل تلك القسوة وتريد أنْ تأتي إليك ولا تعود مثلما جاءتْ "

انطلقتُ أعدو أحفظ كلّ أغنية تقع في يدي، ذهبت إلى الأغاني القديمة والحديثة وفكرت أنْ تكون أغنيةً تحمل فرحًا وسعادة، ثمّ تراجعت وقلت في نفسي، كلا يمكن أن تكون أغنية تحمل المعنى الحقيقي للحب، ظللت على تلك الحيرة حتى جاء المنادي ووزع على كلّ منا أغنيته التي سيغنيها أمام حوريته، فرحت وكدت أفقد عقلي من شدة الفرح فقدْ كانت أغنية «غاب القمر يا ابن عمي» للمبدعة شادية من نصيبي، كنت أحفظها عن ظهر قلب منذ زمنٍ بعيد، والمذياع لا يكفّ عن إذاعتها بصورة شبه يومية. حفظت كلّ مقطع فيها، وظللت أُردّدها مئات المرات، بلْ وكتبت كلماتها على ورقٍ مقوى، كنت أحتضن الورقة وأعيد تسميعها وأنا مغمض العينين، يدقّ قلبي بقوة وأغفو حين استحضر صورتها، حتى جاء اليوم الموعود وانتشرتْ ذرات العطر الفواح في أرجاء الجزيرة، وجاء المنادي وقال: إنهن في الطريق قادماتٌ من الجانب الآخر من الشاطئ، لبست أفضل ملابسي، وتهيأت للقاء وجاءتْ و رأيتها وطار عقلي من شدة جمالها، وحين سألتْني عن كلمات الأغنية بصوتها الشجي» والصوت ذبل في الخلاء والليل ما عاد له دليل « لم أستطع الرد وجاء صوتي مخنوقًا أو كأنه قادمٌ من كهف بعيد، رَدّدت المقطع مرةً أخرى ولكنْ بدا على وجهها الضيق وبصوت أكثر بهاءً: «نعس الفضاء واتملى قلبي بنجوم الليل» ثمّ صمتتْ كي أكمل

فلم أستطع، صوتي لم يخرجْ ضربت رأسي بشدة، وقلت لها: «إني أحفظها جيدًا، وبعد العديد من المحاولات اليائسة لمْ تتحمل انتظار المزيد، ومضتْ لحال سبيلها، ولكنّ العجيب أنها بمجرد رحيلها انطلق لساني يردّد كلمات الأغنية ...

بكيت كأنني لم أبك من قبل، ولعنت حظي العاثر آلاف المرات، ثمّ قررت الذهاب إلى الشاطئ الآخر وليكن ما يكون.

عَبرتُ ووجدتُ الحوريات جالساتٍ على الجبال شاخصاتٍ بأبصارهن نحو السماء، ولمْ أجدْ حوريتي بل وجدت موضعها فارغًا، ناديتها بأعلى صوتي لمْ يُجبْني أحد، حوريةٌ أخرى أشارتْ إليّ فصعدت إليها على الفور، ونظرت فوجدت حوريتي غريقة تلتصق بأسفل الجبل، دقّقت النظر فوجدت بضع كلماتٍ مكتوبةٍ فوق جثتها «مشوارنا همسة وضحكة شاردة في الفضاء ... مشوارنا خطوة عمرها ما بينقضى» عُدت مرة أخرى أنتظر المنادي ينادي بأغنية أخرى وبحورية أخرى تسألني لعلني أجيب.

قُلوبٌ على الجدران

عبثًا كنت أحاول منع ذلك النزيف المتواصل، فقدْ تَجمعّتْ بعض بقع الدم على الجانب الأيسر من صدري وأخذتْ تزداد الرقعة على ملابسي شيئًا فشيئًا حتى سمعتُ صوت طقطقة قفصي الصدري -كان ذلك مؤلمًا- ولكنه ألمٌ مختلطٌ ببعض اللذة، ثمّ وجدت قلبي يترك مكانه ويخرج، وبينما أنظر إليه كان يهبط من شرفة منزلي بهدوء وحذر تاركًا خيطًا من الدم ينساب على الجدار.

****

حين نظرتُ من الشرفة لأتتبع مسيرة قلبي، وجدته يتسلق الجدار في البناية المقابلة، وفجأةً شعرت بك حين تساقطت قطرات من نفس الموضع، ولم أعرف حقيقة لماذا لم أندهشْ من وقوفك بجانبي في شرفتي؟! وأنت تتأملين صدري الفارغ بلا قلب، وتحاولين إيقاف النزيف بيدك وبفستانك وبمناديلك الورقية ولا فائدة، كان الليل قد حلّ وكنا ننظر من الشرفة المقابلة لشرفتك، كنا نتحدث وأنت لا تعلمين أنني كنت أتابعك من أول اليوم ترتدين ثوبًا ورديًا في أول النهار ثم تَدرّج اللون حتى وصل إلى الأحمر الدموي في آخر الليل، وكُنتِ تبكين بحُرقةٍ، سأقول لك كلّ شيء ولكن عليك فقط أنْ تهدئي قليلاً فكل ميلادٍ يعقبه موتٌ.

في بداية الأمر- لحظة ميلاده - حين أتى إلى المدينة، ظهر ضوءٌ بين السماء والأرض متزامنًا مع صوت موسيقى لها وقع يثير في النفس بعضًا من الشجن، تجمع سكان المدينة ينظرون ويستمعون إلى الموسيقى، ظلّ يقترب شيئًا فشيئًا إلى الأرض، وكلما اقترب ازدادت حدة الصوت واتضحت الرؤية، وحين هبط بكامل هيئته، تهافتتْ عليه الفتيات، كُنّ يَحتضنّه بشدة وهو يحاول أنْ يُطوّقهنّ بساعديه الكبيرين.

وحين استقرّ في المدينة ظَلّتْ الموسيقى تعزف بلا توقف، وكانتْ رائحة عطر نسائي نفّاذة تخترق الأجواء، بعضٌ من المناديل الملطخة ببعض القبل تتطاير في السماء وتستقر في أيادي المحبين، وبدأ صوتٌ رومانسي حالم لا يعلم أهل المدينة من أين يأتي يحكي قصص المحبين الأوائل، يحكي بكل التفاصيل الدقيقة كل حكاية، بكى لفراقهم وفرح للقائهم وعاش أهل المدينة في سعادة بالغة.

قاطعَتْني ووضعتْ يدها الساخنة تتحسس بها وجهي البارد، ثم وضعتْ آخر مناديلها على جانب صدري الفارغ، وقالت بلهجة باكية: أرجوك أبلغني كيف مات الحب؟

فلتمسحي دموعك ولتسمعيني جيدًا: «في يوم موته أو قبله بعدة أيام، توقف الصوت الحالم عن الحكي، وتوقفت الموسيقى وتلاشت الرائحة. ففي شارع المدينة الأوسط والذي يُقسّمها إلى نصفين، كان ينام على الرصيف، يُشِعّ من تحت الجرائد التي غطى بها الناس جثمانه؛ ضوءٌ أبيض شفّافٌ تنبعث منه رائحة طيبة جدًا تنتشر في الأجواء وكأنها تُودّعه، وتستمر لفترة قصيرة ثم تعقبها رائحة نتنة لا يستطيع الناس تحملها، فهو مات ولكنْ ليس كما يموت الناس، لم تصدمه سيارة ولم يفتك به أحد اللصوص أو قطّاع الطرق ولم يمرض، أتعلمين حين يصاب الإنسان بالعمى هل يفقد البصر مباشرة؟ كلا إنما تضعف الرؤية شيئًا فشيئًا حتى تتحوّل إلى ظلام، ولكنه حين سار في تلك المدينة، وقع من تلقاء نفسه وتناثرت ذرّاته في الهواء وأصبح الجو ضبابيًا، ففي بعض الأوقات تكون الأجواء باللون الأحمر وبعضها باللون الوردي، وحين رفع المارة أوراق الجرائد لم يجدوا إلا مئات القلوب الآدمية، مما أثار دهشة الجميع، تجمّع حوله المارة من كل مكان متجهّمي الوجوه غير آبهين بما حدث، وفجأة وجدنا القلوب تتسلق المنزل المقابل لنا.

****

أَشرتُ إليك انظري إلى الشرفة الأولى بالدور الأرضي، كانت تنتظر فتاة صغيرة إلى قلب من القلوب المتسلقة ويبدو أنها تعرف صاحبه جيدًا، كانت فيما قبل تحلُم باللباس الأبيض والقلب الأبيض والحصان الأبيض المجنّح لكي تطير مع فارس أحلامها، نَظرَتْ وأمْعنتْ النظر وأَرْهفتْ السمع، حتى إذا ما عرفت أنه هو صرخت وشدّت شعرها وأخذت تحكي حكايتها بصوت أشبه بالبكاء: « في ذلك اليوم بالتحديد طال حديثي معه حتى غُلّقت الأبواب وذهب الحضور، كنا نرسم بعض اللوحات المطلوبة منا، تأخرنا حتى ذهب كل من في المدرسة، عَدونا نحو الباب فوجدناه مغلقًا، كنت متماسكة في اللحظات الأولى، وبعد محاولات فاشلة في الخروج بدأت في الانهيار، واصلنا الدق على الباب حتى تجمّع المارة أمام المدرسة إثر بكائي المتواصل، ولا أعرف لماذا كنت أبكي مع أنني كنت سعيدة جدًا لأنني معه، ولكن طيف الأهل وخصوصًا أمي كان يتراقص على الجدار فبدت وكأنها تمسك بنصل حاد يخترق رقبتي؛ لأنها دائمًا ما تؤكد عليّ بعدم اللعب بمفردي مع الصبيان، أما هو فظهرت عليه أعراض التوتر الشديد من احمرار الوجه والتعرق وانحدار النظرات إلى أسفل، رَبت على كتفي وقال لا تقلقي سنتسلق السور، أحنى لي ظهره بعدما ألقى حقيبتي إلى الخارج، استقبلني أحد المارة من الناحية الأخرى ونجحت في الخروج، حاول جاهدًا تسلق السور بمفرده ولم يستطع، خرج بمساعدة سلم خشبي من أحد المحال المجاورة وانتهت قصتي معه، ولكنني سجَّلتُ اسمي في سجل العاشقين من ساعتها، وحين

أتى لزيارة المدينة فرحتُ وذهبتُ مع كل الفتيات لأحتضنه، وحلمتُ بأن أستعيد ما فاتني معه ثم بعدها تقولون: إنه مات !! "

****

بعدما أنهت الصغيرة حكايتها، أشرتُ إليك أن انظري إلى نافذة الدور الأخير التي كان يُطل منها رجل مسن، كان يقول بصوت عال: هو لا يمر عليه الزمن مثلنا، لا يتجعد وجهه ولا ينحني ظهره؛ وإنما يتغير بتغير من يحمله في قلبه، فقد رأيت فتاة صغيرة تحمله ولا تعرفه، إلا أنها حين أُهديّت إليها وردة حمراء انتشر في جسدها كالسرطان، رأيته يتقافز داخلها فرحًا وتغمض هي عينيها في نشوة وسعادة غامرة، وكان رحمه الله قاسيًا جدًا معي رغم أنني أحببته لذاته حبًا مجردًا، وأرسلتُ معه كل مشاعري ليحملها بسلام إلى الطرف الآخر، إلا أنه في النهاية ربّت على كتفي وتعلل بأنه لا يملك مقاليد الأمور، فلتسمعوا حكايتي: «حين اخترقت أشعة الشمس النافذة الزجاجية وبدا كل شيء خارج السيارة مختلطًا بالضوء المبهر والحرارة، لم تمنعني النظارة السوداء والتي تغطي نصف وجهها من شعور اعتدت عليه، ومهما مرّ عليه الزمن يُدخلني إلى هذا العالم بكل تفاصيله المهزومة والمصلوبة، شعرتُ بوخزة مباغتة وأثر لجرح لم يندمل.

نظرة هلع تحمل في طياتها عتابًا صامتًا ومحاولة للانشغال بهاتفها الخلوي، مع المحاولة المستمرة للالتصاق بزجاج السيارة في المقعد المجاور لمقعدي.

لم أكن أقتنع تمامًا بأنه في تلك اللحظات يمكن أنْ يَهُبّ النسيم فيحمل رائحتها المتكومة في كل ركن من أركان السيارة، ارتسمت في عينيها دارنا القديمة المبنية بطوب اللبن، والحوارات الهادئة والضحكات الطفولية، تمردت خصلة من شعرها الذهبي على حجابها المحكوم قيده، وغَرّدت منفردة نحو الخارج، زفرت بشدة وحاولت بأصبعها السبابة إعادتها إلى ما كانت عليه، فرحة مكتومة وتوتر ظاهر المعالم يخترق غموضها المُحبّب، وهديرٌ من الأسئلة التي ليس لها أي إجابة، رحلة أعلم أنها قصيرة ولكنها يمكن أنْ تكون ممتعة إذا أمسكَت طرف الكلام، فاجأتني بفتح حقيبتها وإخراج كتاب يبدو غلافه بألوان زاهية، سألتها بهدوء من المؤلف؟ لم تجب وظلّت تعبث بالورق، قلّ توترها وشعرتُ برائحتها تتلاشى شيئًا فشيئًا حتى غابت عن أنفي، ووجدتني أنظر إليها وهي تخرجُ من النافذة، تطيرُ وتفرد ردائها الأسود تسد الأفق. أخرجت رأسي من زجاج السيارة، ثم حاولتُ الوقوف ومددت يدي إلى أعلى، ناديت بأقصى ما لدي حتى شعرت بألم الحشرجة في صوتي، لم تسمعني ولكنها كانت تتقاطر عرقًا كحبات لؤلؤ لها بريق له نفس الرائحة التي كنت أشمها"

******

أخذنا أنا وأنتِ نستمعُ لكل قصص أهل المدينة حتى أشرقت الشمس بلون قرمزي غريب، ولم يكن هذا الصباح صباحًا عاديًا مثل كل الصباحات الفائتة، فحين نظرنا من شرفة منزلي لاحت لي باقي الأبنية من بعيد وكأنها ملطخة من الخارج باللون الأحمر، أو كأن عليها آثار من الدماء، بدا الأمر غريبًا في البداية، ولكن مع مرور الوقت وشروق الشمس اتضحت الرؤية أكثر، حيث كان على جدران البيوت الخارجية قلوب آدمية تتسلق الجدران إلى أن تستقر أسفل نافذة معينة، وكل قلب منهم يعرف طريقه جيدًا، حيث أنه لا يتجاوز النافذة التي يريد الوصول اليها ولو بميليمتر واحد، في اللحظة ذاتها خرجت كل النساء ينظرن من النوافذ إلى القلوب المتشبثة، فيتبادلن معهم نظرات الحيرة والقلق وأحيانًا وبعض الابتسامات لمرور بعض الذكريات السعيدة. يستمر الحال بعض الوقت حتى تشتد حرارة الشمس، فتتساقط الدماء من القلوب حتى تجف وتتلاشى سريعًا وتختفي آثارها، وفي كل صباح يتكرر نفس الفعل. أما عن أصحاب القلوب؛ فهم لا ينظرون إلى قلوبهم وهي تتسلق الجدران ولكن فقط يشعرون بألم المسافات التي يقطعها كل قلب فيهم؛ مع أنهم منشغلون بأعمالهم اليومية. القلوب ليست كلها نفس الحجم أو نفس القوة؛ فمنها صغيرة الحجم وكبيرة الحجم، ومنها من يتسلق بصعوبة ويذوب سريعًا حين تشتد الشمس، ومنها من يتسلق سريعًا ويستمر فترة أطول ولا يذوب.

توقفتُ عن الكلام فجأة، وشعرتُ بوخزة مؤلمة في صدري ناحية اليسار، ثم قلتُ:

ألم تلاحظي أن الفتاة التي تتحدث من الدور الأرضي تشبهك إلى حد كبير؟ قالت: وأنت ألم تلاحظ أيضا أن الرجل المسن في الدور الأخير يشبهك أيضًا؟ أشرتُ بيدي ناحية البناية المقابلة، وقلتُ: انظري إنه قلبي أشعر به يتسلق نافذتك.

سكتُ برهةً ثم أكملتُ: مع أننا نتابع الموقف كله منذ بدايته، إلا أن قلبي الوحيد من بين القلوب لايزال يتسلق جدرانك، وهو الوحيد الذي لم يجف ولم يذبل، وأرى أنه رغم مرور الوقت لم يستطع أن يصل إلى نافذتك حتى الآن.

صَفيّــة

في البدء سمعتها تقول: إنها لا تريد إلا السباحة خارج حدود هذا الذي هو ممدد أمامها بلا حراك، ثم شعرتُ بنور حادٍ نقيٍ يخترقني شيئًا فشيئًا، ووجدتني وكأنني أهتز بشدة ثم ولجنا إلى عالم المرئيات.

همست صفية «أتعلم أنّ لكل منكم صفيته "

حكت لي صفية عن هذا الشيخ وقالت:

قال الشيخ وهو يوزع الحلوى على الصغار والكبار في أرجاء القرية: «حاضر ناضر يا أخواني أما الغفلة ده شيء تاني»، كان وجهه أسمر اللون يحمل بقسماته رائحة الطين، أما صفيته فكانت شابة فتية تحمل بداخلها أنوارًا بيضاء ووردية تكسو ملامحها الرقيقة، أتعلم أين كانت تقابله؟! حين يدخل إلى المجلس يجلس بجانب أماكن وضع الأحذية فيتدافع الأحباب وتتعالى أصواتهم.

قم من مجلسك هذا يا شيخ.

اذهبوا بعيدًا، فهي لا تأتيني إلا وأنا كذلك.

تزداد حيرتهم ويتبادلون مع بعضهم البعض نظرات بلهاء ثم يعاودون السير.

يتقاطر العرق الغزير من جباههم ويزداد الشعور بالقرب، وحينها تأتي إليه في حلة بيضاء تفوح منها رائحة لم يعرفها من قبل..

وحين يسير في طريقه عائدًا إلى بيته يبتاع كيسًا من الحلوى ثم يفرغ محتوياته في جيبه الفضفاض، ويجوب شوارع القرية ويعطي الصغار ... يهللون فرحًا يتسابقون إليه في مرح طفولي وينتظر مروره الكبار أيضًا كي يُقبلوا يده ويدعوه للدخول كي تحصل البركة في المنزل ... يغني بصوته الشجي فتبكي النسوة ويتأوه الرجال وهو على حالته من الوجد والهيام، وحين يتدافع الصغار ويعبثون بجيب جلبابه يدفعهم برفق ثم يردد: « حاضر ناضر يا إخواني أما الغفلة ده شيء تاني"

حين يمر من أمام البيوت، يخرج الناس ومع كل واحد منهم صفيته، تكون في أجمل صورة لها في هذا الوقت وهذا المشهد، ثم بعدما يمر وينسى الناس ما قد حدث تعود صفيتهم إلى القبح كما كانت.

صفية أنتِ لحظاتٌ في اليوم متفردة وضوء يضيء بداخلي، حزنت يا صفية عندما أخطأت بجدول الضرب ولم أعرف الناتج فعاقبني المدرس بالضرب على ظهر يدي في صباح شتائي بارد وبدت يدي زرقاء، لمعت عيناها وداعبت شعر رأسي وعاتبتني لأنني ضربت الولد الضعيف وقالت لي بأنها ستظل معي دائمًا.

طال انتظاري لها متى ستأتي يا صفية؟! كانت بعيدة جدًا ولكنني أراها بوضوح، أحاول أن أرفع صوتي قدر الإمكان، سألتها: كيف ألقاك؟ بدت عيناها زائغتين ومحمرتين قليلاً فقالت: عندما تكون الدموع سهلة وحارة وترى طفلاً يبكي فتكبي مثله، وعندما تشعر بكل من هم حولك وتنسى قلقك الدائم وسعيك المتواصل للشعور بالرضا.

تعجبت كثيرًا عندما وقفت ونظرت من النافذة ناحية البحر، وجدتها تقف تنظر إلى القمر، كان ظلها يتأرجح وشعرها المنسدل يغطي آخر فقرات ظهرها، تنادي بهمس وأسمعها تميل من مرور النسمة ثم تعرج ناحية القمر. ماذا تفعلين يا صفية؟! طوت جناحها الصاعد إلى القمر وقالت أنا هنا دائما.

قلت زاد أرقي وأصبح نشيجي مسموعًا، غفوت ولم أنم قرير العين.. بكيت لبكاء الطفل فأين أنت؟!

ربما يكون هذا اليوم الذي أشعر فيه بك.. عندما كنت ولازلت أبحث عنك في ورقة خريفية مبتلة ملقاة في أودية سحيقة، أو قصاصات من مشاهد متقطعة عالقة بجدار القلب، وحين تحولت الغاية وتشكلت في نظرة منك، أو تستحيل الرغبة في الابتسامة العذبة غير مكسورة أو غير مصطنعة من شفتيك، ويتماوج الحلم كالفراشات الملونة أمام عينيك فتنسجين بيدك طوقًا من الياسمين تعلقينه برقبتي. .

يا صفية أشعر بالسعادة والدوار، وأغتسل بماء الصبا وأصفف شعري وأخفي فيه معالم البياض، هل تعلمين؟! تعبتُ وهرمتُ ونسيت أن أنسى بأن الرداء تطاير، وتعريت أمام الجميع وظللت أنت صفية، طالعتني وجوه طالها الموت، ووجوه قادمة للحياة، وأفلام سينمائية جلسنا أمامها طويلاً، وحصص تعليمية ومدرسون ومدرسات، وجدران وطلبة وطالبات، والجو حار وبارد ومعتدل، وأعياد ومراجيح وصواني للحلويات، وحزن غير مبرر وسعادة لابد أن تكون مبررة، وأنت كما أنت بغموضك الشهي وسحرك الغامض؛ ربما في غيابك حكمة ما، أو ربما إذا التقينا مؤقتًا زال عنك غموضك الشهي وانبجسَ سحرك الغامض.

يا صفية هل تعلمين لماذا أشعر بالسعادة والدوار؟!

لأنني سأقول لك حكايات ونتمدد على العشب الأخضر، ونستمع إلى ألحان عذبة، ونطوف بالذكريات أركان العمر الخضراء، وتظل الحكايات متجددة بدون رتابة أو ملل.

صفية لقد علمت الآن.

هل قرب رحيلك؟!

انتفض الوجود داخلي، يريد تحديد مكانها من خلال صوتها، وتأهب الفناء لاستقبالها وتوحدها الذي ليس بعده انفصال.

عند هذه اللحظة وعند النفق المظلم وأنا أدور حول ذاتي وأصطدم بالظلام، أمر بدوائر مغلقة وأرى بصيصًا من النور يقترب مني شيئًا فشيئًا، وأرى أناسًا راحلين ينادونني من بعيد بحلل بيضاء ووجوه بلا ملامح، يغوصون في بحر مياه حمراء، يُمسكون بحبل سميك، يشخصون بأبصارهم إلى أعلى، شعرتُ بأنني أطير في فراغ، وأنني سأهبط وأقف إلى جوارهم.

صفية حمدًا لله أنك جئت، ماذا يفعل هؤلاء؟!

جلستِ عند رأسي وداعبت شعري، صفية لا أشعر بأقدامي...؟ لم ترد وواصلت انسحابها.

قلت بصعوبة صفية، شعرتُ بها حتى حلقي، وبعدها ضاع صوتي وتلاشى.. أخذتني من يدي ووضعنا أقدامنا على سلم واصل للسماء وعرجنا ....

جُـويـريـة

نادتني (جُويرية) وهببتُ واقفًا، قالت امنحني ولو سطرًا واحدًا في حكاياتك؛ لأنني أخاف أنْ يفوتني مشهد الحب الملتهب فوق نيران تلك اللحظة...

قالت: هلْ تذكر حين تلاقينا في صمتِ وخجل وبريق عينيك، كنتِ كذلك وأنا أقرأ عليك بعضًا من الأشعار، أوقَفتِني ولم ترغبي في سماع بقية القصيدة، ولم أسمع منك سوى كلمة مع السلامة، وحين ولّيتني ظهرك لمعت بعض الشعيرات البيضاء على جانب رأسك ومضيتِ...

- صدقيني، كتابة قصتك ومحاولة تجميع كل تفاصيلها من الصعوبة بمكان، انتهى حديثي معها وسرتُ في طريقي أحمل بين يدي دفتري الصغير وقلمي مخترقًا الشارع المزدحم، وحزنٌ دفينٌ يدبّ في أوصالي، اندفعتْ أسرابٌ من الأمنيات الضائعة ترفرف أمامي مبتعدة مثل الفراشات الملونة. نظرت إليهنّ خجلاً من أنني لم أستطع تحقيق أيَّ أمنية منهن في محاولة لجبر خاطري الحزين، كانت الأمنيات الضائعات مسرعات في مساء صيفي جاف له رائحة التوابل الحارة.

جال في خاطري وأنا أعبر من بين الزحام أن استكمل القصة، ووصلت فيها إلى أنّ جُويرية ستموت كمدًا على حبيبها المقتول من أبناء عمومته بسبب الثأر، وحين عُدت إلى المنزل رنّ الهاتف لتخبرني حبيبتي بأنها أصبحت ضمن الفراشات الملونة التي طارت بعيدًا عني في هذا الصباح البائس.

وضعتُ يدي على جبهتي أستدعي بقية القصة؛ فإذا بالمشهد يتشكّلُ أمامي وهي تَبكيني وتتفقدُ جثتي من بين الجثث الطافية فوق بركة من الدماء، كان قلبي يدق بعنف وهي تركض.. تركض تبحث عني، وحين وجدت جثتي وضعَت رأسها على صدري وشهقت بعنفٍ، وحين انتبهت قررتُ أن تكون النهاية أن تشرب جُويرية الحبوب المنومة وتموت.

أثناء كتابتي لنهاية تلك القصة الشاقة، أتَت فراشةٌ ملونةٌ أخرى لتحطّ في طريقي وتنتظرني على باب مدينتها الساحر؛ حتى نتبادل تلك المشاعر، وتقول امنحني ولو سطرًا في حكايتك لأنني أخاف أن يفوتني مشهد الحب الملتهب فوق نيران تلك اللحظة.

دفقات من الشغف تحملها بين طيات صوتها المرتعش، بادلتها حباً بحب، ساورني شعورٌ بالنشوة خاطف، وقلت فراشة لا تجيد الطيران في صباح صيفي جاف، ثم قررتُ تغيير

النهاية؛ فجُويرية لن تموت والبطل سيهرب من أبناء عمومته وستصبح النهاية سعيدة، فرحتْ جُويريه وهي تقوم بعد رقادٍ طويلٍ من على أوراقي، وفرِحَ البطل لأنني أنقذته من الموت في آخر سطور الحكاية، وعدتُ إلى الفراشة الملونة فوجدتها تستند بمرفقيها إلى مكتبي وقد أمسكت بكل قصصي تريد تغيير نهايتها إلى نهايات سعيدة..

الشّتـاء

(1)

الكلاب تعوي بالخارج ولا زلتُ أقف خلف النافذة أنتظره، الهواء البارد يلسعني، بنظرة خائفة مستطلعة ربتت أمي على كتفي ثم جذبتني برفق وأغلقت النافذة. كانت عيناها تحاولان مقاومة النوم، وكان جسدها الهزيل يرتعش، انقبضت ملامحها وقالت: أدام الله علينا الستر، أذّن الديك القابع فوق السطح وأرسلت الشمس أول خيوط النور، سالت دموع أمي وقد أعياها طول الانتظار؛ فلابد لها أن تنام لأن يومها الشاقّ يبدأ في الصباح، تذكّرتُ فمنذ يومين نظرتُ من النافذة في هذا الموعد إلى ذلك الرجل بعينيه الغائرتين وهو يغني على الربابة، يُنشد موالاً حزيناً يحكي عن الحادثة التي وقعت، بعدها وجدتُ بعض الرجال يهرولون ناحية الترعة يحملون السلاح، لم يمرّ الكثير من الوقت حتى صار الشارع الضيق المظلم ممتلئاً عن آخره بجموع البشر، أصوات الأعيرة النارية تتلاحق وتختلط بالهمهمات، دققتُ النظر فوجدت وجوها نعرفها ووجوها لم تمر علينا يوماً.

ماتت «قمر» هذا ما قاله الرجل لصاحبه وهما يسيران ببطء بعد انتهاء الجلبة الكبيرة، زفر الآخر من أعماقه وقال: كنت في المقهى وسمعنا صوت طلقتين واحدة تلو الأخرى، جرينا ناحية الصوت فوجدنا رجلاً يجري داخل الزرع ورجلاً آخر يسير في الطريق المؤدي إلى الجبل، وجسد أنثوي ينام على الأرض تحيطه الدماء من كل الجوانب كانت هي «قمر ”

استيقظ أبي وسأل عنه أجبته لم يأت بعد، دارت عيناه داخل محجريهما وبحث عن عصاه الغليظة وجلس خلف الباب ينتظره. جاء بخطوات متلاحقة ثم فتح الباب برفق فأحدث صريراً خافتاً، لم ينتظر أبي حتى يكمل دخوله فانقض عليه بالعصا وهو يصرخ ويقول: تأتي بعد الفجر وتتسلل كما يتسلل اللصوص أو تعتقد أن البيت أصبح «لوكانده»؟ حوادث القتل تملأ القرية وقلت لك قبل ذلك لا تتأخر ولا تجالس القتلة وقطاع الطرق. أطرق أخي (عوض) برأسه ولم يرد، وأحسست أنه يعاني بشدة من شيء غير ضرب أبي له بالعصا فقد رأيته يتأوه من شدة الألم.

خبطت أمي على صدرها عدة خبطات وهي تصرخ وأرادت أن تمنع أبي من مواصلة الضرب؛ فهوى كف أبي الضخم على خدها الرقيق وسال الدم من فمها وتابع أبي حديثه: يذهب مثلما جاء، يذهب ليجالس القتلة وقطاع الطرق، همّ أخي بالخروج واندفعت أمي وتعلّقت بذراعه وقالت بصوت يخنقه البكاء: إذا خرج سأخرج معه ولن نعود. أطرق أبي برأسه وعبث بلحيته وأحسست أنه هدأ بعض الشيء بعد قولة أمي.

(2)

بعد فترة ليست بالقصيرة أخذني أخي وذهبنا ناحية النيل شرق البلدة؛ فالشوارع هناك أكثر ضيقاً وأشد ظلمة، مرتفعات ومنخفضات وبيوت من الصفيح مبنية على جرف النيل، ضوء القمر شاحب والمنظر يثير الخوف عندما يعانق القمر النيل، ظهر لنا شبح رجل ينظر من نافذة صغيرة من بيت طيني قديم قائلاً: تفضل يا أستاذ (عوض)، جلست مع أصدقائه وتأخر الوقت، همستُ في أذنه هيا بنا كي لا يحدث ما لا تُحمد عقباه لم يعرني انتباهاً وأكمل حديثه مع رجل ضخم الجثة يدعى (عبد القوي) ينفث النرجيلة بشراهة وكلماته لا تخلو أبداً من السّباب والألفاظ البذيئة .

قال له أخي: أما كفاك ما تفعل؟ ألم تشعر أبداً بشيء من الحزن أو تأنيب الضمير بعد كل فعلة تفعلها؟

أخذ نفساً طويلاً وأطلق دخانه صوب السماء، شخص ببصره بعيدًا ثم قال: مرتين فقط.

المرة الأولى كانت «قمر» وقد علِمت أن صابر سيخرج، أعددتُ العدة لقتله عقب خروجه من السجن مباشرة، وقبل أن يعود إلى منزله ويحتمي بأفراد عائلته، نظرتُ فوجدت ابنته قمر تُطوّقه بذراعيها وتقفز عليه من شدة الفرح، كان ممسكاً بحقيبة بلاستيكية بها ملابسه التي دخل بها السجن، كانت تحتضنه وتدور به، تتعلق برقبته دورة وثانية وثالثة، أطلقت الطلقة فاستقرت في جسد قمر ولم يصب صابر، ولكنني تعجبت أنه ترك ابنته وهرب في الزراعة، أما أنا فأخذت طريق الجبل حين سمعت أصوات أهل البلدة وهم قادمون.

وأما الثانية؛ كنت أعرف هذا الرجل جيداً و جاءني أحد أبناء عمومته يريد التخلص منه، ودفع لي جزءًا من المبلغ، أخذتُ سلاحي وذهبت إليه في أرضه ليلاً لأنني أعرف أنه كان يفضل الري ليلاً، وحين وصلتُ وجدتُ حفيده الصغير يجلس معه، وكان لا يفتأ يهدهده ويقذفه إلى أعلى، أرخيتُ السلاح خوفاً على الصغير، وانتظرتُ حتى طال انتظاري، جلستُ خلف الشجرة، وحين نظرتُ نحوه وجدته يفترش الأرض، وكان الصغير يعبث بطاقيته ولحيته، وعندما جاءت زوجته تحمل له بعض الطعام سمعتُ صوتها تصرخ وتستنجد بمن حولها، تفقدت الأمر فوجدت الرجل قد فارق الحياة .

ضحك الرجل ضخم الجثة وضرب كفاً بكف وقال:

لم ينتظرني (عزرائيل) ولم يمهلني حتى أتقاضى أجري كاملاً، ولكنني يا أستاذ (عوض) أعدتُ المبلغ الذي أخذته إلى الرجل فهذا هو شرف المهنة.

ضحك أخي (عوض) وقال بلهجة مازحه: نعم معك حق شرف المهنة.

(3)

في هذا الشتاء جلسنا جميعاً في الطابق الثاني المبني حديثًا، في البيت رأيتُ الضباب يغطي النوافذ، جاءت أمي بالأغطية لتفردها علينا.

في تلك الليلة سمعنا صوت الباب يُفتح، اعتدلت أمي في جلستها ثم قالت:

اهبط وتأكد من أن الباب مغلق، انتابني خوف شديد وأنا أهبط الدرج؛ فالإضاءة خافتة ولا يوجد سوى مصباح صغير بضوء أصفر باهت، تحسستُ الدرج المحاط بالسور الخشبي، وتناهى إلى سمعي صوتٌ يصدر من المندرة، تخطيتُ العتبة الفاصلة بين حوش البهائم والمندرة، وفتحتُ الباب برفق، وجدتُ أخي يجلس مع شبح رجل لم أحدد ملامحه في ظل العتمة، وسمعته يُحدّثه بلهجة حادة: خاب ظني فيك، فرد الرجل: لا تظلمني يا أستاذ عوض، أشاح بوجهه بعيدًا ووثب الرجل ناحيته ثم أمطره بوابل من القبل، وقال عد إلى ما كنت تقول، تمتم أخي ببعض الأناشيد التي كنت أسمعها حينما كنت أذهب معه إلى الموالد، كان صوت أخي يتعالى «لما بدا منك القبول أُخرِجتُ من سجن الأسى» كانت تسيل من عينيه دموعٌ غزيرة، وكان جليسه يطوّح رأسه يميناً ويساراً متفاعلاً مع ما يقوله.

لم يشعر أخي بوجودي في البداية، وحين اقتربتُ منه ظهرت عليه علامات الارتباك، ثم همس في أذني هل استيقظ أبي؟ قُلتُ: لا، تنفس بارتياح وأشار إلى الرجل القابع في الظلام؛ ثم قال: سلم على عمك (عبد القوي)، نظرتُ إليه في دهشة، الرجل ضخم الجثة بذيء اللسان الذي كنا نجالسه منذ فترة؟ اقتربت منه بحذر وتعجبتُ أنني وجدته يبكي ويمسح بكم جلبابه الفضفاض أنفه الغليظة، وما أن لمس كفي كفه حتى شعرت بالخوف منه، فأسرعتُ بالصعود إلى أعلى، وما هي إلا دقائق حتى سمعته يُودّع الرجل ويغلق الباب، ثم صعد الدرج ودخل إلى غرفته، فانطلقت إلى أمي أحدّثها بأن أخي قد عاد وهو الآن في غرفته.

(4)

دخل أخي في تلك الليلة مبكراً شاحب الوجه يُرى عليه أثر التعب، تَعلّقت برقبته مثلما أفعل كل ليلة فلم يتحمّلني وأنزلني برفق، ثم أمرني أن أذهب إلى الطبيب وأحضر بعض التحاليل الطبية.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى الطبيب وأحضرت الأوراق المطلوبة، وحينما استقبلتُ الطريق وسط الزراعات، سمعتُ أصوات صراخ وعويل، وكلما اقتربتُ من الدار ازدادت حدة

الصوت، وما إن وصلت حتى وجدت أمي تجلس على الأرض تهيل التراب على رأسها، كانت الروح الخارجة لتوها من جسد أخي ترفرف حول المكان، دخلتُ عليه مندفعاً فوجدتُ همساتٍ وحوقلةً ومصمصةَ شفاهٍ، كان أبي يجلس على الأرض يدفن وجهه بين يديه والرجل الذي يقلب أخي يميناً ويساراً لا يزال يردد:

وبكرة نموت وبعده نموت

ونتشال على التابوت

ننسى الأهل والمولود

ويتجلى علينا الله

ثم يردد الحاضرون "لا إله إلا الله"

تَفحصتُ كل الوجوه التي ازدادت اصفراراً، النخل ينحني بهامته السامقة، الطريق موحش وطويل، حفيف الأشجار كأصوات الأشباح، وما إن انتهى الطريق حتى نُبشت الأرض واستقرّ الجسد داخل الظلمة والسكون.

(5)

حلّ الشتاء مرة أخرى، عُدت إلى النافذة، القرية منذ موت أخي هادئةٌ نسبياً، لم نعد نسمع أصوات أعيرة نارية، ولم نعد نسمع الرجل بالربابة ينعي أحد أفراد القرية، نظراتي متفحصة تمسح الشارع الضيق المظلم، تبحث عن جلباب يشبه جلبابه أو صوت يشبه صوته، البيت لم يستردّ روحه المغادرة في الضحكات والغناء، رأيتُ الظلام والسكون والضباب، ومازال المصباح يلقي بضوئه الأصفر الباهت علينا، ومازلتُ أجلس بجوار أمي وقد جحظت عيناها وذبل جسدها من شدة الحزن والمرض، تناهى إلى أسماعنا صوت باب الدار يُغلق، انتفضت أمي وقالت بصوت مبحوح: من بالباب لم نسمع رداً، كرّرت أمي ما قالت:

فقال: أنا (عبد القوي) يا أم (عوض)، رأيتُ باب الدار مفتوحاً فأغلقته، وما إن سَمِعت أمي قولة الرجل يا أم (عوض) حتى أجهشت بالبكاء، واستيقظ أبي على صوت نحيبها المتقطع. انطلقتُ أعدو ناحية النافذة فوجدته يدخل المسجد ليصلي الفجر، يومها لم أتبين صوته لأنه اختلط بالبكاء وهو يجهر بالأذان، أرهفتُ السمع فوجدته يبكي بعدما فرغ ويقول (رحمك الله يا عوض).

سمعتُ صوت أبي يناديني ويقول من بالخارج؟ وأمك لماذا تبكي؟ وما أن حكيتُ له ما حدث حتى خر مغشياً عليه، وعندما أفاق قال: رحمك الله يا ولدي.